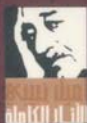


2020

30.12.2019



# اميد بسيد

## لکم بن لکم

ثلاث جلسات امام مندوق العجب



اميل بييه

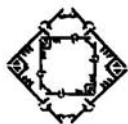
لكم بن لكم

ثلاث جلسات امام صندوق العجب



لُكع بن لُكع  
ثلاث جلسات أمام  
صندوق العجب

حكاية مسرحية





إميل حبيبي  
لُكع بن لُكع:  
ثلاث جلسات أمام صندوق العجب  
حكاية مسرحية  
( الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٨٠ )

Emile Habiby  
Luka' bin Luka'  
(Luka' the Son of Luka')

النَّاشِر: دار عريسك للنشر، حيفا  
المحرِّرة: سهام داوود  
تصميم: شريف واكد

ISBN 965-7388-02-3

حقوق الطبع وإعادة النشر، كاملاً أو جزئياً، وبكافة وسائل الإعلام المطبوعة  
والإلكترونية، محفوظة لدار عريسك للنشر، صاحبة الحقوق الحصريّة  
والمسجلة قانونياً، ولا تُمنح دون اتفاق مُسبق وخطّي معها.

الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء - حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان



© 2006

Arabesque Publishing House  
P.O. Box 6370, Haifa 31063



إهداء:

إلى حنين وفرح حتى يكون اللقاء بينهما فرحاً



« لا تقوم الساعة حتى يلي أمور الناس  
لُكَّعُ بْنُ لُكَّعٍ »

( حديث شريف )





الجلسة الأولى

## مجنونة بدر

« أناديكم . أناديكم .  
أشدُّ على أياديكم .  
أبوس الأرض تحت نعالكم .  
وأقول أفديكم .  
فمأساتي التي أحيا  
نصبي من مآسيكم . »

( توفيق زياد )



## صندوق العجب

الفرجة برغيف فوق طبق طرعاني

لا مسرح ولا من يتعبون . بل جمهور من أهل الحارة، ونحن من أهلها، يجتمعون لقضاء أمسية أسطورية مع صندوق العجب .

ونكون مؤهلين لضرب الماضي بالحاضر والخلف بالسلف والحابل بالنابل . فقد قيل لنا إنّ ثمن الفرجة على صندوق العجب رغيف من الخبز العربي الذي، لأمر ما، أبقوا على عروبة اسمه . وقد وقعوا في هذا الإهمال الأمني حرصاً على الاضطهاد القومي الذي في البدء كان . فرغيف الخبز العربي في بلادنا أغلى ثمناً من الخبز الإفرنجي بقرار من الدولة، وما أدراك ما الدولة . قطعت عنه الإعانة الحكومية المقررة لسواه من خبز العيش على اعتبار أنه بذخ كتعاطي البسكويت والجاتو والطورطة .

ويكون أصحاب الأمسية قد انتدبوا صبيّاً وصبيّة يقفان أمام باب القاعة وهما يحملان طبقاً من ورق النخيل كالذي كانت جدّاتنا تجدلّنه وتصفّ عليه أقراص العجين فنحمله

نحن، أحفادهنّ، إلى الفرن القريب . ويكونون قد جاؤوا بهذا الطبق، شرطاً، من قرية طرعان الجليلية القائمة على عهد هذه الأطباق حتى يومنا هذا متحدية الاستيطان الذي يُطبق عليها من كل جانب .

ويكون المشترك في الأمسية قد حطّ رغيفه على الطبق .  
فحطّ رغيفنا ونُقِبِل على الفرجة منفرجي الأسارير .

وفيما نحن على هذه الحال من الانفراج إذا برجل، في ثياب المهرجين، يتقدّم نحو صدر القاعة وهو يدفع أمامه بعربة صغيرة نصب فوقها صندوقاً مُزركشاً بزخارف . ويعلّق على كتفه اليمنى، كما تعلق البندقية، مقعداً خشبياً ضيقاً بطول الصندوق . وعلى كتفه اليسرى يعلّق كشكولاً كبيراً متدلياً حتى رجليه كأنه يد ثالثة . ويكون للصندوق طاقتان من زجاج كأنهما عينان بلا رموش . عينان جامدتان أشبه بعيني حمار أعجم . والحمار الأعجم، كما تعلمون، هو ذلك الحمار الذي سلم، بالعجمة، من عاهة النطق . فأنعم وأكرم!

ويكون للصندوق أذنان مستديرتان كبيرتان هما دولابان من خشب في قفا الصندوق . دولاب في اليسار ودولاب في اليمين . ونعلم، نحن الذين أخنى علينا الذي أخنى على لُبْد، أن شريطاً من الرسومات الأسطورية الملونة قد لفّ على عمود الأذن اليمنى وربط أوله بعمود الأذن اليسرى . فيحركها

صاحب الصندوق فيتحرك شريط الرسومات، من وراء العينين الزجاجيتين، من اليمين إلى اليسار - حكمة، لو تعلمون، قديمة. وأما نحن، القدماء، فنفهم من هذه الإشارة أن صاحبنا محسوب على أصحاب الميسرة.

هذا هو، إذن، صندوق العجب كما كان آباؤنا وأجدادنا يسمونه. وفي بلدان عربية أخرى سُمِّي صندوق العجايب. وفي غيرها صندوق الدنيا. وأولاد الحارة - نحن ومن حولنا - صناديق مقللة. فيأتي المهرج، بصندوقه وبحكاياته، حتى يحطّم أقفالها.

وأشدُّ ما يشدُّنا إلى المهرج الشبه بينه وبين صندوقه: العينان متشابهتان اتساعاً وجموداً. والأذنان ضخامةً واستدارة. كما تشابهت الزخارف: أجراس ماعزية تجرس وحوافر خروفية جافة، تخرف وخرق متعددة الألوان، متنافرة، تتركش بها المهرج، كما تركش بها صندوقه حتى كأنهما يحتفلان بعيد الاستقلال.

فلا نتمالك أنفسنا عن الدهشة. ونحتفل بصندوق العجب بإبداء التعجب وبالمهرج بالهرج. حتى إذا علا اللغط والتساؤل ولا جواب سوى الهسهسة - أي هُس هُس - إذا بالمهرج ينيخ مقعده أمام عيني صندوقه. ثم يخرج من كشكوله صنجين نحاسيين مستديرين كأنهما رغيفا خبز أخرجنا، للتوّ، من

التنور. فيحمل كل صنّج في يد. ويصفقُ بهما ثلاثاً. فيسكن  
الهَرَج وينقطع اللغَط. فلا همهمة ولا هسهسة كأن على  
رؤوس أهل الحارة الطير. وتدهمنا القحقحة فنعتبرها قحّة.  
فنكظمها تهيباً.

ويروح المهْرَج ويجيء. يصفقُ بصنّجيه وينشد أشعاره  
القديمة حتى كأننا، يا بدر، لا رحنا ولا جينا:  
«قُم تفرّج يا سلام على عجائب الزمان»

يكون المهْرَج، صاحب الصندوق، يُنشد وينادي:  
«قُم تفرّج يا سلام على شيء كان وما كان  
شوف بوزيد الهلالي قاعد يبعزق بأموالي  
شوف ذياب بن غانم، غانم إيش وهو نايم؟  
شوف تغريبة بني هلال، صار الحال بقدر الحال  
قُم تفرّج يا سلام على عجائب الزمان  
صندوق العجب!  
صندوق الدنيا!  
تعالوا وتفرّجوا على ما كان  
وعلى ما هو كائن. شيء كان وشيء يرفض أن  
يصبح في خبر كان.  
تعالوا يا صناديق الدنيا،

يا أولادي!

تعالوا نفتحها!

افتحوها. تنفّسوا ملء صدوركم. شهيق. زفير

شهيق، زفير!

حين كان ما كان،

في غابر العصر والأوان،

وكنت أطلّ على الحارة بصندوقتي،

أجرس بأجراسي وأخرف بحوافري الخروفيّة،

كان الصغار يتحلّقون حولي كاللهلال الخصب.

ويتناوبون النظر في عيني صندوقتي،

اثنين اثنين.

كانت أجنحتهم مكسورة.

فكنت أحكي لهم عن العقبان والنسور.

كانوا صعاليك.

فكنت أحكي لهم عن فرسان الصعاليك.

كانوا ريشة في مهبّ الريح.

فكنت أحكي لهم عن بساط الريح.

وكانت الفرجة برغيف. فإذا عزّ الرغيف فبنصفه

أو بربعه.

فإذا جاءت الستّ بدور

بولدها بدر  
فبابتسامة من عينيها المرعوبتين .  
أنا ألف بالشريط .  
والدنيا تلف بنا .  
تلف وتدور .  
هلموا يا أولادي .  
لقد عزّ الرغيف ونصف الرغيف  
وربع الرغيف .  
ولكن نظرة العطف والحب  
والشوق باقية .»

وفجأة يتوقّف المهرّج عن الكلام وينتصب أمامنا بلا حراك  
حتى نحسبه تمثالاً نُحت في صخر، حين يحتوينا صوت  
الشيخ إمام وهو ينشد أبياتاً من قصيدة توفيق زياد  
« أناديكم » :

« أناديكم . أناديكم .  
أشدُّ على أياديكم .  
أبوس الأرض تحت نعالكم  
وأقول أفديكم !  
فمأساتي التي أحيا



نصيبى من مآسيكم .  
أناديكم . أناديكم .  
أشدُّ على أياديكم .  
أنا ما هُنت في وطني  
ولا صغرت أكتافي  
وقفت بوجه ظلامي  
يتيمًا عاريًا حافي  
حملت دمي على كفي  
وما نكست أعلامي  
وصُنت العشب فوق قبور أسلافي .  
أناديكم . أناديكم .  
أشدُّ على أياديكم» (\*).

وما إن يتلاشى هذا الصوت المتفجّر حتى تعود الحياة إلى تمثال  
المهرج فنسمعه يعود إلى نداءاته: «أناديكم . أناديكم! تعال  
يا بدر . تعالي يا بدور . كأننا، يا بدر، لا رحنا ولا جينا» .

(\*) الشيخ إمام عيسى، من حي الغورية العتيق بالقاهرة . فنان شعبي  
وثاني اثنين أحدهما الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم : هذا  
ينظم الشعر قلائد من دمه وذلك يغنيها على أوتار فؤاده  
فيجتمع الشعر والغناء في نقطة أرخميدس، إلا أنها فوق أرضنا:  
بين العمال والطلبة .

## لا بَدْر ولا بدران، ولا بدرية ولا بيدر!

وفيما نكون مترددين بين السماح لأولادنا بالتفلت منا، تلبيةً لندائهم، وبين إحكام القبضة عليهم، على أن الأمر مجرد تشخيص، إذا بامرأة وقور في ثياب خريفية، على جمال خريفي، تنتصب من بين مقاعدنا وهي تردّ على المهرج أن:

«لا! لا! بل رحنا وجينا. ولكن بدرًا لم يعد!»

ونراها، وقد شدتنا المفاجأة إليها، تتقدّم نحو المهرج وقد خفضت من جناحيها كما لو أنها طير يطوف حتى يهبط. ونلتفت نحو المهرج فإذا بحالنا من بعض حاله: يُسقط صنّجيه ويتمتم بقمّ وتفرّج ولكن بغير يا سلام. ويرددهما بلا مناداة. وبهمّ بأن يحرك أجراسه فلا يقوى على حركة سوى أن يميل إلى اليمين وإلى اليسار فعل رقص الساعة.

وما إن يلتقيان حتى يدور بينهما الحوار التالي، والبادئ المهرج:

المهرج: بدور! بدور الخرساء

سوى طلاقة عينيهما.

بدور: بل بدور الخنساء يا قشمر!

المهرج :

بدور البشائر..

طير السنونو المبشر بعودة الربيع!

أرأيت، يا بدور؟

لا رُحنا ولا جينا.

بدور: بل رحنا وبقيتم يا قشمر.

المهرج: بقينا حرصاً على البقية يا بدور.

بدور: وتركتمونا، في متاهات الفيافي، نتيه في مجاهل

التجربة الأولى.

وكأنكم لم تكونوا!

هل وُلدنا من الحائط..

يا غريبال الماضي؟

المهرج: صندوقي علّمني، يا بدور، أن مسيرة التاريخ

البشري قد حفرت،

عبر آلاف السنين،

أُخدوداً عميقاً في جبين الأرض

حتى لا تنساب جميع الأنهار

إلا في هذا السيّب،

في طريقها إلى مصبّها.

لا سيّب أمام أي شعب من الشعوب

سوى التجربة الذاتية.

وما من شعب يستفيد  
من تجارب الشعوب الأخرى .  
كان عليكم أن تقلعوا أشواككم  
بأظفاركم!

بدور: هل أصبحتم، يا قشمر،

من الشعوب الأخرى؟

لماذا كان علينا أن ندفع

كل هذا الثمن؟

المهرج: لا تلومي الضحية .

بدور: لماذا كان علينا أن نحمل

كل هذا الزمن؟

المهرج: لا تلومي الضحية .

بدور: لماذا كان علينا أن نكبو؟

المهرج: لا تلومي الضحية .

بدور: ثم كان علينا أن نحبو؟

المهرج: لا تلومي الضحية .

بدور: لماذا نحن غرباء؟

المهرج: ولكن غرناطة لم تنسكم .

وإذا بالمهرج يرفع صَنْجِيَه عن الأرض ويصفق بهما وينادي:

«إستمعي يا بدور! إستمعي يا دهور،  
إلى شاعر الأندلس الطريد(\*) يغني علي أرغله  
لحن حنين إلى غرناطة» .

وإذا بشيخ مهيب الطلعة يرتدي عباءة عربية فضفاضة يُقدم  
نحو المهرج وهو يحمل أرغلاً يزمر فيه لحنًا حزينًا . ويظلّ اللحن  
الحزين يعلو وينخفض، وهو ينطلق من مكان آخر في القاعة،  
في حين يأخذ الشيخ في إلقاء الأبيات التالية في صوت رتيب  
وخفيض:

«ها نحن غرباء عن هذا العالم إلى الأبد،  
ما دامت غرناطة تنسانا .

يا شعبي، المتناثر مثل سرب من الحجلان:  
نيران أخرى جاءت تشتعل في قُراك، تتحدث عن  
إله آخر بلغة أخرى .

أين تمضي باحثًا عن أوطان وهمية؟  
أيها العصر الذهبي!

أيها العصر الذهبي المتألق من كل الجهات .  
يا عصر الآلام الغرقى بالدم من كل الجهات .  
يعرو الخوف ملك إسبانيا حين يشاهد الهلال يبدو  
قبل الأصيل» .

ويعمضي الشيخ بأرغله . ولكن اللحن يظلّ يلحّ على أسماعنا  
إلحاحاً . ويعود المهرج إلى بدور . ونكون مضطربين : ماذا  
يعتمل في صدر بدور؟ وإذا بالمهرج يعود إلى مخاطبة بدور :  
المهرج : يظلّ القشر يحنّ إلى عوده .

ها أنتِ تعودين يا بدور .

بدور : أعود بدوراً خريفية .

المهرج : الخير في بدر .

بدر الربيع .

بدر الدجى .

سراج الدنيا .

بدر سيعود .

بدور : بدر عاد يا ابن عمّي .

عاد بدر يا حنين الصبا .

المهرج : أين بدر يا بدور؟

هل عادوا وأبعدوه؟

بدور : بُعدهم عن أن يقووا على

إبعاده .

المهرج : فهل حبسوه؟

بدور : كما يُحبس جذر في بطن

الأرض .

- المهرج : أين بدر يا بدور؟  
 بدور : في بطن أمه .
- المهرج : أين بدر يا بدور؟  
 بدور : قيل لي إنهم يدفنونا  
 في حُضن رُبوة  
 تستلقي فوق رمال  
 عكا .
- نُبّرّد أطرافنا بماء البحر  
 وحين تفيض ..  
 المهرج : لقد فاضت .  
 بدور : يدفنونا في حُضن رُبوة شقيقة  
 على الخط الأخضر،  
 في مقابر قرية المقيبلية  
 على الخط الأخضر  
 فنُطلع البقول ناضجة  
 وحين تفيض ..  
 المهرج : لقد فاضت .  
 بدور : يدفنونا في أطراف الطيّبة الطيّبة .  
 علامات حدود ..  
 وحين تفيض ..

- المهرج : لقد فاضت .  
 بدور : يدفنوننا في مدافن بني صعب  
 في الطيرة  
 حتى كأننا في مدافن  
 غزة هاشم .  
 وحين تفيض ..  
 المهرج : لقد فاضت .  
 بدور : يدفنوننا في مرتفعات  
 أم الفحم .  
 المهرج : نيران أخرى تشتعل  
 فوق هذه المرتفعات .  
 بدور : ففي كفر قاسم .  
 المهرج : كفر قاسم وقف على أولادنا .  
 وقد فاضت بهم !  
 بدور : وبدر، يا ابن عمي ،  
 أما هو من أولادكم ؟  
 المهرج : اليد واحدة والتربة واحدة ..  
 ففي أية قرية مأواه ؟  
 أين مسقط رأسه ؟  
 بدور : بحثت عنه بين أولادكم .



بحثت عنه في كفر قاسم .  
في سخنين في كفر كنا . .  
بحثت عنه في الطيّبة .  
فلم أجده في مقابركم .

المهرج : بدور!

أين بدر؟

بدور : كان يحب رحيق الصبّار .  
كان يأكل التينة بشوكها  
ويظلّ يلحّ ويطلب .  
بحثتُ عنه تحت جذورها .  
رحتُ أقتلعها وأنبّش عنه .  
فكانت تعصى عليّ .  
يعود الصبّار ويطلع .  
ويعود الصبّار يسخو  
برحيقه .

المهرج : بدور!

إن الصبّار لا يزول .  
باقٍ كما صبر العربي  
باقٍ .  
حتى في الأندلس .

لور كما ظلّ يغنّي :

« هنا وهناك تتردد أصدااء الصبّار العربي »

بعد ثمنمئة عام!

لأن بدرأ، الموسّد، بدور:

لا يشبع.

لا يرتوي من رحيق

الصبّار.

يظلّ يعضّ عليه

بالنواجذ.

ولا يكلّ

ولا يملّ.

إن أسنان بدر

كمّاشة.

المهرج: بدور!

أين بدر؟

بدور: وجدته..

المهرج: أين؟

بدور: هنا. هناك.

هنا.

أقرب.

أبعد .

ولدي! أولادي!

ونراها، ونحن مصعقون، تتوجّه نحونا مشرعة جناحيها حتى  
كانها تودّ أن تضمّنا، جميعاً، إلى حضنها. إلا أن المهرج لا  
يكفّ عنها. وإذا به يهتف بها:

المهرج: وبدران، يا بدور؟

أين بدران؟

بدور: غرق في النهر!

المهرج: أيّ نهر؟

بدور: أيّ نهر.

من المحيط إلى الخليج.

المهرج: وبدرية؟

بدور: باعها الأمير في سوق النخاسين.

المهرج: أيّ أمير؟

بدور: أيّ أمير.

من المحيط إلى الخليج.

المهرج: وبيدر؟

بدور: افتقدته في البيادر.

المهرج: أيّة بيادر؟

بدور: أية بيادر.

حين تسيج البيادر

كل البيادر بيادر!

وفيما تكون ماضية تشقّ طريقها في وسط جمعنا، ونحن  
نشيعها بنظرات الإعجاب وبصفق الأيدي، إذا بها تلتفت  
نحو أولاد افترشوا الأرض بالقرب من مقاعدنا، الواحد أمام  
الآخر على طول الممرّ الذي يتوسّط القاعة. فتتهف بهم أن:  
« قوموا تفرّجوا على صندوق العجّب. أحلى من  
عزّل البنات ومن محشي ورق العنب. إنّ في  
صندوق هذا المهرج نجمتين تُبدّدان الحُلُكة: ما  
كان وما سوف يكون. قوموا! لا تجعلوه يفوتكم  
كما فاتني. قوموا! لا تجعلوه يبقى عنكم كما  
بقي عني. قوموا! قوموا! »

(\*) الشاعر أراغون، والأبيات من قصيدة « حب لإسبانيا » ترجمة  
الأديب السوري الدكتور أحمد سليمان الأحمد (مجلة  
« المعرفة » السورية، كانون الثاني - شباط ١٩٧٨).

## أحد عشر حجاباً أسود وطفلتان وحجاب أحمر واحد

ونعود بجوارحنا إلى المهرج وقد جرحته بدور بذهابها . فيعود  
إلى صَنْجِيَهْ يصفقُ بهما كما تصفقُ الندابات بأيديها . ويقول :  
المهرج : كانت بدور تركتنا مضيعين  
وتعبين .

فأردنا أن نوسد رؤوسنا على صخور

مراعينا

وأن ننام على أطول حلم

باللقاء الموعود .

فاقتلعوها

وجعلوها علينا حراماً ،

لا في نوم

ولا في قيامة .

فأردنا أن نعيش على أطول

حلم باللقاء

معتصمين بحبل الصبر ،

بشوك الصبر،  
بالصبر الحامض،  
بالصبر المخدر،  
بالصبر الذي سبقنا به  
الحشيش والأفيون وشمّ الكوكايين،  
بالصبر  
هذا السلاح الوحيد  
الذي يبيح به الآباء  
قتل أولادهم: إصبر!  
إصبر على الضيم ..

وإذا بصوت، كأنه الآهة في الليل الكظيم، ينطلق مردداً هذه  
الكلمات على نغم الموأل البغدادي (الإبراهيمي). فيسمّرنا.  
ويسمّر المهرج في وقت معاً:

صوت: «إصبر على الضيم لو جار الزمان وحكم  
فالنذل، يا ناس، على سبّع البراري حكم  
والباز قدره وطي واليوم ساد وحكم  
ناديت: يا أهل الحمية اليوم قدرني ضاع  
الفاينة تنقبل والصالحة تنضاع!  
ناديت: يا أهل البيت هالحين حقي ضاع

قوموا انظروا واعدلوا واجروا عليّ الحكم»

فيردّ عليه المهرج، وهو يروح ويجيء في مشية المتهمّ أو في مشية الذي أسقط في يده:

المهرج: قوموا انظروا واعدلوا واجروا عليّ الحكم.

ناديت ..

ما تركونا ننام كي نحلم باللقاء .

وما تركونا نعيش، بالصبر،

حتى اللقاء .

أيقظونا على مجرد البقاء .

أيقظونا!

جعلوا عيشنا طيشاً

وصبرنا حركة سرّية .

قصرّوا عيشنا حتى ضاق عن لحظة

صبر .

أصبح الصبر هو

القبر .

وعيشنا أصبح كله

يقظة . ما أصعب العيش الذي كله

يقظة .

ما أضيق العيش الذي يضيق  
عن الصبر.

قوموا انظروا واعدلوا.

تعالوا يا أولاد الناس.

تعالوا واجروا علينا الحكم!

بدور!

إن من خلف ما مات

يا بدور.

تعال يا ولدي.

يا ابنتي.

تعال يا خلف.

تعال يا خليفة.

يا صابر تعال ويا صابرة.

تعال.

تعالوا -

يا صبر ويا صبرة

يا صبار ويا صبرين،

يا أيوب

ويا آيبة!



وإذا بسرب من الأولاد، صبياناً وصبايا، أولئك الذين كانت بدور قد حثتهم على مشاهدة الصندوق، يهرعون إليه ويصطقون على جانبي الصندوق كأسنان المشط متأهبين لأن يتناوبوا القعود على مقعده والتحديق في عينيه الزجاجيتين، اثنين اثنين، ذكراً وأنثى، كما خلقهم ربهم الرؤوف بعباده. ويكون المهرج، في هذه الأثناء، قد أخرج من كشكوله صحيفة مطوية. ويفتحها مثلما كانت تُفتح صحيفة من جلد الغزال. ويعلقها المهرج على ستارة ظاهرة للعيان.

فإذا هي صحيفة واسعة تخللتها خطوط في غير تنسيق أو في تنسيق قد خفيت حكمته عنا. وتحسبها حروفاً وما هي بحروف. وتحسبها وجوهاً آدمية وما هي بوجوه آدمية. وقد ترى فيها جبلاً وقد ترى فيها سهوباً. وما هي بالجبال وما هي بالسهوب.

ونروح بأبصارنا نحو الصحيفة فلا تستريح على طلاسماها. بل يعجزنا أمرها. ولكننا نتعالي، تعالي الجاهل، عما ينم عن جهلنا بالأمر. ويتركنا المهرج، ونحن على هذه الحال، ويتوجه إلى مشط الأولاد قائلاً:

« قوموا انظروا واجروا علينا

الحكم.

قوموا!

اثنین اثنین -

ذکراً وأُنثى كما خلقکم ربکم .

انظروا هناك .

انظروا في الصحيفة وما تخللها من خطوط

ورسوم،

دارسة وسادة

وساردة .

واحكروا لنا عما تشاهدونه

في صندوقي .

افتحوا صناديقکم

وتنقّسوا .

شهيق زفير .

شهيق . زفير .

أنتما! .

ويشير إلى فتى وفتاة . فيتقدمان ويجلسان على مقعد

الصندوق . وينظران في عينيه الزجاجيتين . ثم يستديران

ناحيتنا :

الفتى : أرى في الرسم رسوماً دارسة .

قُمقماً من قماقم سيدنا سليمان الحكيم .

- الفتاة: أرى مارداً ينطلق من قُمقم محطّم .  
قُمقم من قماقم سيدنا سليمان الحكيم .  
حطّموه عليه ليحطّموه .  
فانطلق!
- المهرج: وأنتما!  
فتى آخر: أرى أثقالاً على ظهر حمّال .  
فتاة أخرى: أراه يهّمّ بأن يلقبها عن كاهله .  
المهرج: وأنتما!  
فتى آخر: أرى مرجاً مخضّباً بالدماء .  
فتاة أخرى: أراه مرجاً من الورود الحمراء .  
المهرج: اتّفقا!  
الفتى: ورود فوق أضرحة .  
الفتاة: ورود .  
الفتى: ورود .  
المهرج: وأنتما!  
فتى آخر: أرى الشمس غاربة .  
فتاة أخرى: بل أراها وهي تشرق .  
المهرج: اتّفقا!  
الفتى: تشرق في الغد .  
الفتاة: الغد مشرق .

المهرج: اتَّفقا!  
الفتى: أُحِبُّهَا وَتَحَبَّنِي . اتَّفَقْنَا مِنْذُ وَقْتِ طَوِيلٍ  
على غدنا المشرق .  
أحِبُّهَا وَتَحَبَّنِي !  
الفتاة: أَحَبَّهُ . أَحَبَّهُ .  
ولكن ما العمل بأهلي؟

وتخفي الفتاة وجهها بكفِّها خجلاً و خوفاً وتهمّ بالهروب .  
فيقطع المهرج عليها سبيل الهرب بصرخة مدوِّية:  
المهرج: قفي ا قفي يا ابنة العرب اسمعينا . إلى أين أنت  
هاربة؟  
الفتاة: إلى حضن والدتي .  
يا أمّاه!  
والداي في القاعة ينظران  
كما تنظرون .  
وينظرون وينتظرون .  
نواطير علينا .  
يا أمّاه!  
المهرج: أحضان الوالدين حانية كأشجار الحور  
في جنان الخلد .

ولكننا، بعد، خارج الجنان، بعد،

نعيش!

فاسمعينا يا ابنة العرب!

يا ابنة العرب اذكرينا

واذكرى ما فات .

الفتى : ما فات!

المهرج : اسمعينا يا دنيا

نحكى لكم عن أحضان في بلادنا

أصبحت أضرحة .

ويُخرج من كشكوله دقاً يروح ينقر عليه نقرأ بطيئاً ثم يُسرع

في النقر على دقّه . ويمضي أمام الأولاد ويجيء وهو ينادي :

المهرج : هل جاءكم خبر كفر قاسم

ورقصة الموت في كفر قاسم؟

فيرد عليه الأولاد منشدين :

«أما تفرّج، يا سلام، عينك ترى العجايب» .

ويتقدم أحد الفتيان نحونا ثم يقول :

أحد الفتيان : عادوا من أماكن عملهم والشمس عائدة

إلى حُضن المغيب القاني .

كان المغيب يحبس أنفاسه

حتى يطلقها دفعة واحدة .

أيها المغيب

حتّام تحبس أنفاسك؟

ألا تختنق؟

أطلقها أيها المغيب .

أطلقها .

نحن نختنق!

الفتيان : أما تفرّج، يا سلام، والحاضر يعلم الغائب .

الفتى : عادوا إلى القرية زرافاتٍ

ووحداناً .

ولكنهم جُمعوا، فيما بعد،

في كومة واحدة .

الفتيان : أما تفرّج، يا سلام، واعمل حالك مش شايف .

الفتى : جاؤوا وهم يطرحون

السلام

على الضابط المكلف بتنفيذ عملية -

أخضر .

فتاة : أخضر؟

- المهرج : معناه أن الطريق سالك .  
 الفتاة : سالك ؟  
 المهرج : مالك ؟  
 الفتاة : أيّ طريق ؟ الخط الأخضر ؟ الخضر الأخضر ؟  
 المهرج : سيّان ! الخط الأخضر .  
 السياج الأخضر .  
 الخضر الأخضر .  
 سيّان !  
 كلّه أخضر كخضراء الدمن !  
 الفتيان : أما تفرّج ، يا سلام ، إن كنت ، بالله ، مش خايف .  
 الفتى : طرحوا السلام على الضابط المكلف :  
 شالوم أيها الضابط .  
 صوت : هل أنتم مبسوطون ؟  
 الفتيان : تمام ، أيها الضابط .  
 صوت : أحصدوهم !

ويأخذ المهرج في النقر على دُفّه . فنسمع صوتاً شبيهاً بصوت طلقات المدفع الرشاش . أو هذا ما ارتسم ، عبر طبيلات آذاننا ، في مخيّلات عقولنا . ومما يزيد الضغط على مخيّلات عقولنا صرخة أنثوية حادة تنطلق ، دفعة واحدة ، من صدور الفتيات :

الفتيات : أحصدوهم .

أحصدوهم .

أحصدوا!

إلا أننا لا نراهم يسقطون . وإذا بالفتاة نفسها تصرخ :

الفتاة : لماذا لم يسقطوا؟ لقد حصدوهم!

المهرج : لأنهم لم يموتوا يا ابنتي .

الفتاة : بل ماتوا .

المهرج : لو كانوا ماتوا

لسمعنا الصخر يبكي .

فكيف لم يبك من هم بين

المحيط والخليج؟

الفتيان : أما تفرّج، يا سلام، عينك ترى العجايب .

الفتى : جاؤوا في تسع موجات،

موجة أعلى من موجة .

وسقطوا في تسع موجات .

وظلت الكومة تتكوّم .

جاءت الموجة التاسعة والأخيرة .

في أساطير الأقدمين أن الموجة التاسعة،

في البحر الهائج،



هي الأشدّ هولاً وفتكاً .  
الموجة التاسعة حملت أربع عشرة امرأة  
وفتاة ،  
بينهنّ طفلتان ،  
نقلن في شاحنة من حقول مدينة اللد  
المحرّمة  
حيث كنّ يجمعن ثمار الزيتون المقدّس .  
لقاطات .

المهرج :

سائق الشاحنة ،

الفتى :

حين رأى الجثث المكوّمة ،  
حصيلة الموجات السابقة ،  
أراد النفاذ بشاحنته نحو القرية .  
العساكر أوقفته عنوة .  
وأمرّوا الركبّ بالنزول .

سائق الشاحنة .

المهرج :

فتى من الطيبة .

زينة الشباب .

نزل من مقعده وتوجّه نحو مؤخرة الشاحنة .  
نصب سلماً خشبياً وتوجّه نحو النسوة والبنات  
وهو يقول ،

وعيش السامعين يطول :

« إنزلن يا أخواتي .

ولتشرع كل واحدة بطاقة هويّتها  
بيدها .

نحن لسنا فدائيين .

ولا متسلّلين

ولا مسلّحين

ولا نازلين على طريق حيفا - تل أبيب  
خلسة .»

نزلن .

الفتى :

فرايين الجثث المكوّمة .

فأخذن يستعطفن العساكر أن يأذنوا لهنّ  
بالحياة .

برأس أمّك ،

فتاة :

يا خواجة ،

أن تتركنا نعود إلى

القرية .

فتاة أخرى : أبوس إيدك ، يا خواجة ،

خلّني لأطفالي !

فتاة ثالثة : يخلي لك شبابك

تخلّي لي شبابي .  
فتاة رابعة : السلام عليكم وعلى عيالك  
يا خواجه .

وإذا بالفتية والفتيات، ويكون المهرج في وسطهم، ينشدون  
ويرددون الكلمات التالية على نغم الأغنية العبرية المنتشرة  
عالمياً - ( هَفينو شالوم عليكم ) :  
« ألقينا السلام عليكم  
ألقينا السلام عليكم  
ألقينا السلام  
سلام  
سلام عليكم »

وتصطفّ الفتيات الخمس، وقد أسدلن على وجوههنّ أحجبة  
سوداً شفافة، في حلقة راقصة . يرقصن أمام الفتیان وهم يغنون  
معاً، أغنية « ألقينا السلام عليكم » .  
وفيما هم على هذه الحال من الرقص والإنشاد، والمهرج منزوٍ  
في مكان قصيٍّ وهو مكتوف اليدين، إذا بأحد الفتیان يخرج  
عن الجمع ويتقدّم إلى أمام وهو ينادي علينا :  
أحد الفتیان : أعينونا يا بنات العرب !

بالبنات الخمس، الراقصات الآن،  
لا يكتمل العدد  
ولا تروق الحكاية.  
أكملن النصاب،  
يا أخواتي وأُمَّهاتي،  
بسبع نساء وطفلتين.  
رقصة الموت في حاجة إلى  
سبع نساء وطفلتين  
حتى يجتمع لنا أربع عشرة أنثى  
عدداً وهدرأ.

أحد الفتيان : أعينونا يا بنات العرب !

بالبنات الخمس، الراقصات الآن،  
« ما نادى المنادي إلى الموت  
وعزّ الطلب  
في دنيا العرب .  
فكيف ونحن نرقص رقصة الموت فحسب  
ونشخص تشخيصاً ! »

ونشعر بالحركة من حوالينا . ويتحاشى واحدنا النظر في عيني  
إلفه . ويكون الرقص والإنشاد أمامنا قائماً . وتنجلي الجلبة

عن خمس نساء يعتلين مسرح الصندوق وهنّ متحجّبات  
بالأسود الشقّاف .

وإذا بالفتى نفسه يعود ويهتف بنا :

« كَفَّ يا شباب ! كَفَّ يا شباب ! »

فنلبي ندائه على همّ . وبعضنا يفعلها استحياء . وبعضنا  
يفعلها وهو يشرق بدمعه . إلا أن الفتى ، وقد تهدّج صوته ،  
يمضي في ندائه :

« بقي عليكم أن تجودوا بوالدتين

وطفليهما .

كل والدة وطفلتها .

اثنتين اثنتين

أربع إناث . فيكتمل النصاب . »

وإذا بامرأتين تندفعان خارج صفوفنا وتعلوان نحو مسرح  
الصندوق . كل امرأة ووراءها طفلتها متعلّقة بأذيالها . والوالدة  
تدفع بالطفلة بعيداً عنها والمولودة لا تُرخي قبضتها الصغيرة  
عن ثوب والدتها . والمرأتان متحجّبتان بالحجاب الأسود  
الشقّاف . وأما الطفلتان ، ويا للعجب ، فسافرتان . إنهما  
مسافرتان !

ويقفز المهرج من زاويته وقد حمل دفة. ويأخذ في النقر عليه صليات صليات.

وتتجمع النسوة، القديمات والقادمات، تحاول الواحدة أن تحتمي بجسم الأخرى. وتندفع الواحدة محاولة أن تخترق الصفّ الأمامي فتندفع الأخرى والأخرى والأخرى. حتى يتحوّل الضغط في اتجاه المركز إلى قوّة اندفاع دائري. وإذا بكرة آدمية تتشكّل أمام أنظارنا. وإذا بالكرة الآدمية تدور حول مركزها في رقصة الموت التي لم يتحدّث عنها، بعد، أيّ شاعر. ولم يرسمها، بعد، أيّ رسّام. إلا إذا لم نفهم طلاسم الصحيفة الشبيهة بجلد الغزال.

ويستمر الفتية في إنشاد أغنيتهم. ويستمر الفتى المتقدّم بالهتاف، بين الفينة والفينة: «كفّ يا شباب!» ونستجيب له تارة استجابة المسحور لساحره ونوقظ الآخرين من هذا السحر تارة أخرى.

وتكون المرأتان، بطفليتهما، على سطح الكرة الآدمية. الطفلة تندفع نحو أمّها صارخة يا أمّاه! والأم تدفعها عنها صارخة: «أهربي! أهربي يا أمّاه».

وينقر المهرج على دفة صليّة رتيبة. فتقفز الأم الأولى عاليًا بعيداً عن الكرة الآدمية. تُطلق من صدرها آهة أشبه بزغردة الأفراح ثم تسقط بعد أن تكون، في حركة عفوية، قد رفعت

حجابها عن رأسها وألقته جانباً . فتندفع الطفلة نحوها فتقفز  
الطفلة قفزة خفيفة في الهواء ثم تسقط بالقرب من والدتها  
دون أن تحسن إطلاق الآهة الزغرودة .

وتظلّ الكرة الآدمية تلفاً وتدور . ويطلق المهرج من دقّه  
صلية أخرى . فتقفز الأم الثانية وتسقط كما سقطت الأولى  
بعد أن تطلق زغرودتها وتُسقط حجابها . فتندفع طفلتها  
نحوها مثلما فعلت الطفلة الأولى فتلقى المصير نفسه .

ويظلّ المهرج ينقر على دقّه صلية صلية . فتقفز المرأة أو الفتاة  
في الهواء خارج الكرة ثم تسقط بعد أن تُطلق آهتها وتُسقط  
حجابها . حتى يسقط الجميع سوى امرأة واحدة وجدت  
نفسها في مركز الكرة الآدمية . وتكون منتصبه مثل نخلة  
باسقة بعد هدوء العاصفة . وتكون تحمل حجابها في يدها .  
وإذا به حجاب أحمر شفاف .

## لُكْعُ بْنُ لُكْعٍ

ونلتفت إلى المهرج فإذا هو مُصاب بالذهول . يُسقط دَفَّهُ بين الأحذية المتناثرة ويتقدّم نحو المرأة ذات الحجاب الأحمر المخلوع وهو يحاول أن يحتضنها بنظرات عينيه الواسعتين . فيشدنا المهرج إليه . ونُصاب بعدوى ذهوله حتى لا نرى الفتية والفتيات يعودون إلى مقاعدهم في هدوء . ولا يبقى متناثراً فوق مسرح الصندوق سوى أحد عشر حجاباً أسود شفافاً وطفلتين سافرتين . ولا يبقى منتصباً فوق مسرح الصندوق سوى المهرج المصعوق والمرأة ذات الحجاب الأحمر في يدها . وإذا هي بدور نفسها .

المهرج : بدورا

بدور : بدور ذات الحجاب المخضّب !

المهرج : كنت هناك ؟

بدور : هناك ؟

المهرج : أعني هنا !

بدور : كما تراني ، إني هنا !

المهرج : أعني هناك !



بدور: هناك؟

المهرج: ربّي أعنّي! .. هنا.

بدور: هنا. هناك.

سامحك الله يا قشمر.

ألا تعلم أن الأسياد قد خلطوا بين

الأبعاد؟

المهرج: بدور!

بدور: وهل يقرر المكان سوى الإنسان؟

أنت هنا وأنا هناك.

أنت وأنا الآن هنا.

نحن هنا.

كنت هناك يا قشمر.

ومثل هذه الرقصة

رقصنا في كل

مكان.

فحيث نكون علينا

أن نرقص.

رقصوها يا حنين الصبّا.

رقصوها وهم يزفونها إلى النهر

عروساً.

خضّبوها بالحناء  
في شهرها التاسع  
وزقوها إلى النهر  
عروساً!  
سلام عليها، تلك الطّبيّة الطريد،  
وهي تزفّ،  
نزيفاً نزيفاً،  
فوق بساط أرجواني من الزعتر  
ضمّخوها ببخور الصندل  
وجاؤوا يحملونها على مركبات من نار  
عروساً فاردة!  
رقصونا يا قشمر!

المهرج: بدور!

بدور: تكلم!

المهرج: من هم؟

بدور: أيهم الطّبيّة صيّاها.

المهرج: والأنهار؟

بدور: تعلقوا مياهاها فوق حدّ الخطر

فيلقون في النهر بالمزيد من

العرائس.

المهرج : عرائسنا؟

بدور : عرائسهم .

عرائسهم عرائسنا .

يعلّون السدود، يا ابن عمّي،

فيرتفع منسوب النهر .

على شطآن نهر ونهر

أقاموا أراجيح

لعرائسهم .

وفي وادي نهر آخر

زمنوا عرائسهم .

وفي آخر صانوا أعراض أفواه

عرائسهم .

وأما فروجهم فلها الانفتاح!

إن البكارة في شرقنا

خرس

والصبر في شرقنا

هو الإيمان!

إلا أن منسوب النهر يعلو

ويعلو!

ستقوم الساعة!

- المهرج: بدورا
- بدور: إن بركائنا يتململ تحت الأراجيح.
- المهرج: بدورا!
- بدور: ينطلق من بين الحطام.
- المهرج: بدورا!
- بدور: من تحت القصور.
- المهرج: على مهلك!
- بدور: مهلي مهلي  
ويفنى أهلي ..
- المهرج: مهلك!
- بدور: الذلُّ مُهلك!
- المهرج: أستريني، يسترك الله بستره، حتى يعضوا الطرف  
عن صندوقي  
فأعرضه في حاراتهم.
- بدور: يا ساتر. يا ستار!
- المهرج: إن كلمة السُّر هي الستر.
- بدور: كلمة السُّر؟
- بدور: دم دا دم واحدة،  
ذات رسالة خالدة.
- المهرج: دم دا دم دم؟

بدور: جهل جهلجل واحدة  
ذات رسالة خالدة.

المهرج: جهل جهلجل؟

بدور: بلع بلعلع واحدة،  
ذات رسالة خالدة.

المهرج: بدور؟

بدور: خرس خررس واحدة،  
ذات رسالة خالدة.

المهرج: بدور؟

بدور: حبس حبسيس واحدة،  
ذات رسالة خالدة.

المهرج: سلام على عقلك!

بدور: شنق شنقنق واحدة،  
ذات رسالة خالدة.

المهرج: إنك تهذين.

وإذا بطرق شديد على أبواب القاعة، من الخلف ومن الجانبين،  
فتشرئب أعناقنا وتقف له شعورنا.

ونسلم من خارج القاعة صياحاً: «شرطة. بوليس. افتحوا.

افتحوا»، وتكون بدور في أثناء هذه الجلبة تصرخ:

بدور: قشمر، ابن عمي، أين أنا؟ هناك؟

فيجيبها المهرج: بل هنا!

بدور: أين؟

المهرج: في بلاد الواق الواق.

بدور: إنك تهذي.

المهرج: جاء دوري!

تهذي أو لا تهذي، أجيب لك إبريق الزيت؟

بدور: ماذا؟

المهرج: ماذا أو لا ماذا، أجيب لك إبريق الزيت؟

ويعود الطرق على الأبواب شديداً. ويعود صياح العسكر.

بدور: دَعهم يدخلون!

المهرج: لو أرادوا الدخول ما انتظروا إذني.

يحطّمون الأبواب ثم يدخلون.

بدور: مثل أشباههم هناك.

المهرج: ثم يزعمون ويُغيرون.

بدور: يزعمون؟

المهرج : حتى يتقيأوا آدميتهم .  
بدور : يُغيرون على حفلة تشخيص ؟  
المهرج : فعلوها ويفعلون ولا يشخصون  
سوى الجثث .  
بدور : فلماذا لا يغيرون ؟  
المهرج : لأن الأمر الآن مجرد تشخيص .  
جزء من أمسينا الليلة .

ثم يتحوّل المهرج نحونا . يحمل صنّجيه ويصفق بهما ويقول :  
المهرج : لا شرطة ولا بوليس .  
لا من هناك ولا من هنا .  
فاهدئي يا بدور  
واستريحوا يا جماعة .  
لقد كانت الغارة -  
الآن، الآن، وليس غداً -  
مجرد تشخيص لإثارة مشاعركم  
على الطريقة العصرية .  
أردنا أن نمتح أعصابكم لا أن نمتحنها .  
رحم الله شاعر الأندلس الجوّال -  
التروبادور -

ابن قزمان .

لَمَّا رَأَى النَّاسَ لَا يُقْبَلُونَ عَلَيَّ شِعْرَهُ

اصطحب قرداً

فَكَانَ يَلْعَبُهُ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ

فِيَلْقِي قِصَائِدَهُ .

لَقَدْ فَعَلْنَاهَا .

وَأَخَذْنَاهَا عَنِ الْعَجْر .

سَقَا اللَّهُ أَيَّامَ الْعَجْر .

كان الشيخ يجوب الأمصار وهو يصطحب طفلة

ترقص

ودباً يلعب

وقرداً يُقلد ستي العجوز وهي تعجن العجين .

لقد جئناكم بصندوق العجب

وبراقصات حتى الموت

وبصنوج وبدفوف

وبحوافر خروف .

فلماذا لا نجئكم بالشرطة،

بالعسكر،

بالبوليس؟

كله مجرد تشخيص!



وإذا بامرأة، أم أطفال، تنتفض واقفة من بين مقاعدنا وهي تصرخ في وجهه:

« كان جديراً بكم أن تعلنوا عن منع الأولاد دون السادسة عشرة من الاشتراك في هذه السهرة – كما يعلنون في الأفلام السينمائية . أَخَفْتُمْ أطفالنا! »

فيجيبها المهرج:

كان هذا الأمر ممكناً،  
يا أختي،  
لو كان من الممكن أن تقي الأولاد  
دون السادسة عشرة  
بطاقةٍ خُطِّ فيها أن  
« لا تقتل الأولاد دون السادسة عشرة »  
ثم تلصق بقنبلة تهوي على  
صور وصيدا.

ثم يتحوّل المهرج نحو بدور ويقول:

« تعالي، يا بدور .  
أعينيني على إيقاظ الطفلتين

وعلى دفن الأحجبة السوداء  
لعلنا نقوم بعمل مفيد واحد  
في هذه الليلة» .

وفيما تقوم بدور بهذا العمل المفيد يأخذ المهرج بالتصفيق  
بصنَّجِيَه . يسحب صندوقه بعيداً بعيداً ووراءه تمشي بدور  
تحمل الأحجبة السوداء ووراءها الطفلتان .  
ونسلم المهرج يقول :

« موعدنا القريب، أيها الجمع الحبيب، في الجلسة  
الثانية على مقعد الصندوق » .

ونسلمهم جميعاً يهتفون، وهم يختفون عن أنظارنا :  
« صندوق العجايب، الحاضر يعلم الغائب .  
الحاضر يعلم الغائب » .

فنصق طويلاً . ونخرج لتناول المرطبات وفي حلوقنا غصّة  
وفي صدورنا انقباض . ونرغب في أن نسترجع أموراً في  
مشاهد الصندوق تذهب بانقباضنا . فنبتسم إعجاباً بأنفسنا  
ولسان حال الجماعة يقول :  
« ما لنا ولهذه الهموم !؟ » .

الجلسة الثانية

بدر..

«الجدع جدع

والجبان جبان»

(شعر أحمد فؤاد نجم / غناء الشيخ إمام)



## فلافل! .. فلافل!

الحارة هي الحارة. وأهلها هم أهلها: قاعدة قاعدية تصلح في كل مكان وفي كل زمان إلا في بلادنا وفي زماننا. ففي بلادنا أصبح الشذوذ هو القاعدة والقاعدة هي الشذوذ.

فعلى أيهما نبني؟

خُذْ لك مدينة الناصرة الأَخَاذَة. فقد بقيت مثلاً على هذا الشذوذ الآخذ. أبقوا القديم من حاراتها على قدمه، سجننا متداعي الجدران. وظلّ أهلها هم أهلها لم يتبدّلوا لا في ظاهر ولا في باطن - شعباً ولغة وتقاليد موروثة تكبر مع الصغير حين يكبر ويتزيّن بزينة الحياة الدنيا ويأخذ في ترميم ما تهدّم من جدران وما تداعي من تقاليد.

ولا يتبادرنَّ إلى أذهانكم أنني بهذا القَدْح، أو، إن شئتم، بهذا المدح أخصّ، من دون العمران الظاهر، ناصرة ظاهر العُمَر - المنارة المشيِّدة فوق جبل القفزة، ناراً أبدية تخلّد ذكرى بني تغلب الذين أقاموا، كما تناقل الرواة، في مرج بني عامر. حاشا وكلا!

إلا أن حديث بني تغلب في مرج بني عامر ذو شجون. كان

الرواة، فيما مضى، يجوبون بلاد العرب على بساط الريح..  
يشرقون ويغربون ما وسعتهم أخيلتهم الخيالة. البلاد بلادنا  
والخيال خيالنا نجمع فيها وبه كما نشاء. كل سهل قريب وكل  
جدار طيب! كان ذلك قبل مجيء الرجل الأبيض واستخراج  
الذهب الأسود.

فأنت تقرأ، في الحكاية الشعبية - « قصة الزير سالم أبي  
ليلى المهلهل الكبير » - أن بني تغلب استوطنوا بادية الشام.  
وإذا بالحكواتي يطير بهم فإذا هم، بلا مقدمة ولا مؤخرة،  
مقيمون في مرج بن عامر في فلسطين. فماذا عدا ممّا بدا؟  
« قصة الزير سالم أبي ليلى المهلهل الكبير » حكاية تروى في  
أرض الله الواسعة القائمة ما بين المحيط والخليج. لقد أعدتها  
إليه، ذي الجلال، موقناً أنه قادر، عز وجلّ، على أن يصونها.  
ويبدو لي أن البطولة، حتى في سالف العصر والأوان، لا  
تحقّ لصاحبها إلا إذا أقام في فلسطين، صابراً متصبّراً، وعلى  
مشارف الناصرة شرطاً.

فما من قُدْح فيما ذكرت عن حارات الناصرة سوى قُدْح  
زنداد.

أضف إلى هذه الواقعة البسطريحية(\*) أن اسم الناصرة  
منتشر في العديد من معالم العمران. تتعدّد الناصرات في  
الدنيا تعدّد اسم الأسد في لغتها أو نيف. ونحن نعلم، على

سبيل المثال، عن ناصرة، نازاريت - أُطلقت على حاضرة من  
حواضر الولايات المتحدة الأمريكية. ولا نعلم عن نسبتها  
شيئاً. وأسفرت ثورة ميريام الأثيوبيّة عن الوجه المشرق،  
الملتهب بإرادة التغيير، للناصره الحبشيّة. وأنسابنا الحبشيّة،  
عبر اليمن السعيد، ضاربة في غور التاريخ. وقد تجددت نسبة  
إلى تلهّفنا على التجديد. فنعم القديم ونعم الجديد.

وفي بلادنا شيّدوا «قرينة» للناصره. وهي الناصرة العليا،  
العليّة، الباب العالي، «نتصرات عيليت». فتظهر، كما تظهر  
«القرينة»، لناصرتنا في الليل البهيم: بهيمة لها عدّة رؤوس  
مصابة بالعاهة البابليّة. أرادوا لها أن تظهر، في الليل البهيم،  
لناصرتنا حتى تردعها عن شقّ طريقها في الليل البهيم  
وتصرفها عن سواء السبيل في الليل البهيم فتضلّ فتهلك.  
غير أن ناصرتنا قائمة على أرض مأسدة. و«القرينة»، مهما  
تتزيّن وتتحضّر، تظلّ عجوزاً قائمة على حافة قبرها تُحتضر.  
إن في السماء لخبرا. وإن في الأرض لعبرا. فما بال البهائم  
لا تفقه؟! ١٢

أرض الله واسعة. وخلقّه مرتبطو الأنساب حتى لا «دم نقيّ»  
سوى دم البهائم. وهذه البدعة البهيميّة لم تأتنا إلا على لسان  
البهائم.

وكان في بلادنا - ويا ما كان في بلادنا - وزير للمعارف

وللثقافة بلغ به الخلط بين وطنية الآدميين وبدعة البهائم شأواً  
عجيباً. فلَمَّا لم يجد في تاريخنا ذكراً لهذه البدعة أنكر علينا  
الوطن!

إلحقوني، أيها المؤرِّخون والمستشرقون والمستعربون! هل  
هناك من مرآة تعكس أفكار عامة الناس ومشاعرهم أصفى  
من الحكاية الشعبية؟ ولقد وجدت في « قصة الزير سالم، أبي  
ليلى المهلهل الكبير»، وهي تعود في أصلها إلى شخصية هذا  
البطل الجاهلي، وظلَّ الرواة الشعبيون يتناقلونها عبر ألف عام  
ونيف وإلى يومنا هذا، حديثاً مثيراً يصلح مفاضلة بين معارف  
البشر وثقافتهم وبين بدعة البهائم.

وذلك حين غدر قوم جسَّاس بالزير سالم، أبي ليلى المهلهل  
الكبير. أثخنوه بالجراح ثم حشروه في صندوق ألقوه في  
البحر. فجرفه التيار إلى شاطئ في مملكة « الملك حكمون،  
ملك بني إسرائيل» فاحتفل به حتى تعافى. فأوكله بسياسة  
الخيال. ومن هنا نترك الرواية للرواية.

« فانتخب له فرساً من أطايب الأفراس. كانت طويلة العنق  
قصيرة الرأس. وأجود من القميرة فرس جسَّاس. فاعتنى  
بتربيتها حتى حالت. فأخذها إلى شاطئ البحر. فخرج عليها  
حصان من البحر. فشبَّ عليها فراحت حاملاً. وبعد عام  
ولدت مهراً أدهم. وكان كامل الأوصاف ململمماً. فسماه



الأخرج لخروج أبيه من البحر. ثم فعل معها ذلك الفعل ثانية فولدت له مهراً آخر كأنه الأبحر، حصان عنتر. فسماه أبا حجلان. واعتنى بهما دون باقي الخيل. وكان يسوسهما في النهار والليل ..» .

قال الراوي: «واتفق، في تلك الأيام، أن برجيس الصليبيّ، أحد ملوك الأروام، خرج مع أخيه في مئتي ألف رجل من بلاد كسروان لمحاربة حكمون اليهودي .. وعند إشراق الصباح التقى العسكران وتقاتل الجمعان في ساحة الميدان والتقت الفرسان الصليبية بالأبطال الإسرائيلية.» .

إلا أن الأبطال الإسرائيلية هُزمت في هذه المعركة، في ذلك الزمان. وكان المهلهل يحثهم على القتال وعلى الصمود. فرآته ابنة الملك حكمون. وكان اسمها إستير. فعلمت أنه بطل نحرير. فطلبت من أبيها أن يستدعيه. ففعل. فامتطى المهلهل صهوة جواده الأخرج. وحارب الصليبيين فأبلى بلاءً حسناً حتى هزمهم.

قال الراوي: «وعظمت منزلة الزير عند حكمون. وقال: مثلك تكون الفرسان. فإنك اليوم عندي كالولد، وأعز من الروح في الجسد. فلولاك كنت في حال تعيس واستولى علينا الملك برجيس ..» .

وكان الملك قد مال إليه كل الميل. فقدمه على جميع فرسان

الخيل . ورفع منزلته على الكبير والصغير . ولقّبه بالأمير . .  
وأكرمه غاية الإكرام . وأجلسه على سُفرة الطعام . فلما فرغوا  
من الأكل وشرب المُدام ، قال له الملك تَمَنَّ عَلَيَّ أَيُّهَا الأمير ،  
والسيد الخطير . فمهما تطلب أعطِكَ دون تأخير . فطلب  
منه الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر الأخرج . وأن يجهّز  
له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا . ومن هناك يسير وحده  
إلى مرج بن عامر محلّ إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله  
وعشيرته .»

فلبّى الملك حكمون طلب الزير سالم ، أبي ليلى المهلهل  
الكبير - الحليف للحليف والخِلّ الوفيّ للخِلّ الوفيّ .  
وهكذا عاد الزير سالم سالماً إلى أهله وعشيرته في مرج  
بن عامر سالكاً الطريق المرجيّة من حيفا إلى ديار بني تغلب  
في مرج بن عامر ، والحمد لله ، الذي لا يحمد على مكروه  
سواه ، على ما أصاب بني تغلب من سيطرة البدعة البهيمية .  
وانظر كيف اختارت العرب العاربة ، على مرّ السنين والعصور ،  
ملكاً وهمياً من ملوك بني إسرائيل ملجأً لبطلهم الأسطوري  
الصنديد وفارسهم العنيد وصديقاً وفيّاً في العاديات حتى  
كأنه السموأل بن عاديا ، والسموأل من قبله . فسبحان خالق  
الأرض والسموات الذي خلقهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا .  
هذا ما جرى لبني تغلب ولحيفا ومرج بن عامر ولحارات

الناصره التي بقيت وبقي أهلها - شذوذاً عن القاعدة الشاذة  
في بلادنا الشاذة .

أما ما جرى للشذوذ الذي أصبح قاعدة في بلادنا فخير مثل  
أضره لكم عنه هو مدينة يافا القديمة . ولا أعني يافا القديمة  
تعميماً . بل أخصّ حياً واحداً من أحيائها الباقية . فالتعميم  
في بلادنا يؤدي إلى التعقيم .

إننا نتحدث عن البشر الأحياء منهم لا الأموات . فلا نستطيع  
أن نُدرج فيهم مقابر يافا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .  
فإنهم أقاموا فوقها فندق « هيلتون » . وما فاض عن حاجته  
أصبح متنزهاً عاماً يتعاطى فيه رواده الحب والعذرة والمخدّرات  
والشذوذ الجنسي والمهرّبات .

كما أننا لا نستطيع أن نتحدث، في مجال القاعدة والشذوذ  
والقاعدة الشاذة، عن حيّ العجمي في يافا . فقد ظلّ، حتى  
كتابة هذه السطور، يتكلّم العربية الملوّثة . وهذه الواقعة هي  
التي جنت عليه كما جنت أختها على عكا القديمة . لقد  
أهمل فأصبح جوّه ملوّثاً حتى غضبت الشمس عليه فبخلت  
عليه بنورها . إلا أن العين البصيرة، ذات اليد القصيرة،  
تستطيع أن تخترق ركام المزابل والوجوه الصفراء فتري أطلال  
الهندسة العربية، تلك التي انتشرت حتى الأندلس واجتازت  
بحر الظلمات .

و حين كُنَّا في هفانا دي كوبا دُعينا إلى مأدبة عشاء أقامها  
لنا رفاق ورفيقات كوبيون في مطعم تحيط شرفاته، ذات  
الأعمدة الشرقية الشبيهة بقامات الغواني، صحن بيت قديم  
ذكرني بأبنية يافا القديمة وعكا القديمة. وكانوا يعزفون ألحاناً  
كوبية أندلسية. وكُنَّا نشرب عصير البرتقال. وكانت الألحان  
تعصر حُشاشاتنا. واغرورقت عيوننا بدموع الفرحة بالحلم  
الشرقي القديم الذي قدر على بحر الظلمات فتحقق في كوبا.  
ما أعظمه وما أشدَّ إشراقه! وهتفت، كما نهتف حين ننتشي  
بالطرب: « لا غالب إلا الله! » وكان إخواني يرددون: « الله!  
الله! ».

فقد أتاني، اللحظة، شعار دولة المرابطين في الأندلس، آخر  
من نطق بها في الأندلس – « لا غالب إلا الله ». أتاني ما قرأته  
عن رحالة أوروبي عصري وجد، في سقف كنيسة مكسيكية،  
نقشاً عربياً، خطوطاً متناسقة وملونة في نقش بديع ذكره  
بالنقوش في قباب جامع قرطبة الكبير وعلى قوارير ساحة  
الرياحين في حمراء غرناطة. فتصفحه ملياً حتى فك رموزه  
وقرأ شعار المرابطين: « لا غالب إلا الله ».

شعار نقشه عبد عربي صانع، بناءً، أندلسي بائس. مقطوع  
في بلاد نائية. نقشه تعزية وحتى يقوى على الاستمرار في  
الحياة.

ورأيته، بعينيّ خيالي، يسترق الخطى صعوداً إلى سقف الكنيسة حتى يطرح السلام على نقشه ويستجير بنقشه. ورأيته، بعينيّ خيالي، وهو يحدّق في نقوشه ويلمسها ويمرّ بأصابعه المعروقة عليها مرّاً خفيفاً، لمس العاشق شفّتيّ معشوقته. ورأيته، بعينيّ خيالي، وحيداً في كوخ طينيّ أخرس وأعمى، بلا أنيس وبلا ضوء في الليل الغريب، وقد افترش الأرض المجهولة وأسند رأسه المُتعب إلى كفيّه وأخذ يبني، من كلمات نقشه، جسراً فوق بحر الظلمات. ثم أخذ يمشي فوق هذا الجسر عائداً إلى والديه وإلى إخوته وإلى والدته. أين بدور؟ كيف حالها بعدي؟ الله! الله! يا عكا القديمة. الله! الله! يا يافا القديمة.

هذا ما جرى لحيّ العجمي في يافا وما جرى لعكا القديمة في هقانا.

أما الحيّ القديم في يافا القديمة، الذي أضربه مثلاً على القاعدة الشاذّة في بلادنا، فهو «ساحة الساعة». حين تعبر الشارع القديم من تل أبيب إلى يافا وتشمّ رائحة البحر، تجدك في ساحة الساعة.

الساعة في مركز الساحة. أشبه بمئذنة شامخة. قامة منتصبه لم يَحْنِها الزمن كما لم يَحْنِ قامة شيخ من أولئك الذين اشتركوا، أيام الشباب، في ثورة ١٩٣٦. وفوق القامة المنتصبه

ساعة ضائعة تُحصي الزمن الضائع .

وعلى أحد الجانبين تكمن للخلق درفة مسخمة كبيرة  
مُحاطة بسور فوقه وأمامه أسلاك شائكة . تلك هي وِجار  
الشرطة . ويضمّ سجنًا أوليًا، مثل قولك : «إسعاف أولي» .  
يجري فيه إسعاف الزبون باللُّكم وبالرُّكل . ذاك بالقوائم  
الأمامية وهذا بالقوائم الخلفية .

هنا وقع الصدام الدموي بين قوات الجيش والشرطة البريطانية  
وبين التظاهرة الشعبية الوطنية الكبرى في ٢٧ تشرين الأول  
١٩٣٣ . وكان صدرها من صدور عمّال يافا وبحّارة يافا .  
وسقط منهم ثلاثون قتيلًا عدا العدد الكبير من الجرحى . إلا  
أن دم الشهيد يظلّ يلحّ ويستطعم . كانوا عزلاً إلا من  
جراحهم . فكروا على الدرنة وأوقعوا الخيالة عن خيولها .  
تكفّنوا بالأسلاك الشائكة وأشهدوا الساعة على أنهم لم  
يبخلوا بأرواحهم حتى تقوم!

وأما في الجانب المقابل للدرنة فتصبر على الزمن الضائع  
حوانيت قديمة - منذ أيام العرب - تُباع فيها المأكولات  
الشعبية، من الفلافل حتى حساء العدس . بقيت الدكاكين  
وبقيت أسماء المأكولات . وفوق الدكاكين تزاحمت المقاهي  
الشعبية الذابلة . تصعد إليها على درجات ضيقة ومُعتمة .  
على هذه الدرجات كنّا نسترق الخطى ونتسلل، في استحياء،

إلى حيث يفرغ الشعب فراغه . فإذا مُسكنا كُنّا نعتذر ونقول :  
علينا أن نكون مع الشعب دائماً . وها نحن هنا معه ، في بؤسه  
وفي بوسه !

لقد ظلّت الحوانيت والمأكولات وأعراض البؤس والبوس على  
حالتها ، منذ أن غادرتنا بدور .

ولكن نيراناً أُخرى تشتعل الآن في أثنافيهما .  
فلافل ! فلافل !

( \* ) نسبة إلى بساط الريح .

## تموت الحمير وتَحيا الزريبة

أما في حارتنا، في سهرتنا الممتعة مع صندوق العجب ومع  
المهرج العجيب، فقد بقيت الحارة وبقي أهلها. كأنا يا بدر  
لا رُحنا ولا جينا.

بدر؟ شهيد الزمن الضائع.

ونحن؟ أيحسب ما تمضيهِ من زمن في هذه السهرة، الملهاة،

في الزمن الضائع؟

مسكين المؤلف!

كم ضيِّع من زمن، من عمره، حتى يفرغ همّه في ليلة من  
ليالينا الفارغة. على إيش؟ هؤلاء المثقفون المتحرِّرون!

يسكبون عصارة قلوبهم في الكلمة وهم يحسبون أنها قادرة

على قلب العالم! الكلمة وحدها؟

ولو لم تكن وحدها!

هل بخل آباؤنا بأرواحهم؟ فلماذا نلومهم على الزمن

الضائع؟ هل هم ضيِّعوه؟!

وفيما نحن في هذه الهموم، قاعدين على مقاعدنا ننتظر،

إذا بخفت الأنوار ينبئنا بأن المهرج، بصندوقه، يوشك على



أن يعود إلينا. فنهرب من همومنا إليه وواحدنا يتفرّس في وجوه جيرانه وجاراته لعلّ بدور، أو غيرها من المشخّصين، بينهم.

وتمسك الريبة بأنفاسنا. فواحدنا يعرف الجميع. وكلنا معرفة. وقد يكون عبد الله، زوج جارتنا الحسنة، أمة الله، واحداً من المشخّصين وقد أخفى الأمر علينا. ها هي أمة الله. فأين زاغ زوجها؟ الله! الله! يا عبد الله على هذه النعمة. هل زمنه، هو أيضاً، ضائع؟!!

وتشطّ بنا الريبة شططاً شططاً: هل أنا واحد منهم؟ هل نحن؟ هل جئنا نتفرّج على التشخيص أم جاء المهرج ليوقع بنا؟ سمعت هذا المهرج، يوماً، يردّد كلمة علي بن أبي طالب أن «أفعالكم أنطقتنا». هل تورّطنا؟ بالقلب، هل تورّطنا؟! أطفئوا الأنوار في القاعة حتى يظلّ ما في القلب في القلب مستوراً لا تراه العيون. أطفئوا الأنوار حتى نتقي عيني هذا المهرج أو يتقي عيوننا.

وفيما نكون نهتف هذا الهتاف في سرائرنا إذا بهاتف من بين صفوفنا يهتف «إطفي الضو، إطفي الضو!» فيردّ عليه آخر: «هل عادت الحرب؟»، فيجيبه الأول: «بل عاد قشمر بن غمرة».

وإذا بنا نسمع صفق الصنوج. فيُغمض الظلام عيونه سوى

أضواء مسلّطة على مسرح الصندوق . وإذا بالمهرج يعود وهو  
يدفع بصندوقه . ونسمعه يقول :

« إن الحرب لا تعود، يا أولاد، بل تأتي .

الحرب تُقدّم . الحرب تجيء .

فما من حرب إلا جديدة حتى ولو استعملت فيها  
الأسلحة القديمة .

الضحايا جديدة، في كل حرب، يا أولادي .

والقتيل لا يُقتل مرة ثانية .

إلا بالكلمة ..

والقذيفة، بعد إطلاقها، لا تُردّ .

ولا تُغسل ولا يُعاد استعمالها

الحرب لا تعود .

الحرب تجيء . »

وإذا بنا نسمع هتافاً أنثوياً أن « يحيا السلام ! يحيا السلام ! »  
يتردّد ويعلو باقتراب صاحبه منّا .

وإذا بحمار أعجم، أعني حماراً أصيلاً، يُدفع نحو المهرج  
وقد زركش بمثل ما زركش المهرج صندوقه بل أكثر رونقاً .  
وتكون امرأة مهندمة، أنثى لا غبار عليها، تسوقه من مؤخرته  
فلا يتأخّر . وتكون تهمزه بعصا في يدها وتردّد هتافها : « يحيا

السلام! يحيا السلام!». فتطربنا رؤية الحمار فنضحك عالياً كما لم نضحك منذ ثلاثين عاماً. وتضحكننا، خصوصاً، ضحكات أطفالنا وقد خرجوا عن الطور.

يقيناً أن أطفالنا لم يُحرموا، بعد، من مشاهدة الحمير. إلا أن هذه الهيبة الملكية، التي يتمخّط بها حمارنا على وقع «يحيا السلام! يحيا السلام!» ويتمخّط على مسرح الصندوق، كما لو أنه رئيس أمريكي يُلقى كلمة ارتجالية أمام المكرفون، منظر لم يشاهده أطفالنا، منذ أيام العرب. مثلما لم يشاهدوا، في عزلتنا المثيرة، راقصات البطن الذائع الصيت وهيبة الملوك والأمراء وشيوخ النفط، وجهاً لوجه. ونستثنى الرؤساء لسبيين: أولهما أننا مرؤوسون، رئيس تحت رئيس تحت رئيس وهلمّجراً حتى لم يبقَ مرؤوساً سوانا. وثانيهما أنهم شاهدوا كافور الأخشيدي، من بعيد لبعيد. فكفروا بالرؤساء ولم يعد هذا الشكل يُضحكهم. فلا عجب إن أصابهم، الآن، العجب فأغربوا في الضحك وفي الطرب.

ويخيّل إلينا أن المهرج قد اندمج في هذا الجو المرح. فهذا هو يبدأ في الجلسة الثانية على مقعد الصندوق وهو منفرج الأسارير يقول، وعمر السامعين يطول:

«لا بأس. لا بأس يا أولادي.

اضحكوا!

فالضحك يطلق اللسان

ويشفي من خرس .

يا أجيال الصمت !

آن لك أن تضحكي .

تكلمي !

فإذا لم تتكلمي ، فاضحكي !

إضحكوا . إضحكوا .

إذا حبسوا أنينكم ، فانفجروا ضحكاً .

انفجروا ضحكاً .

الضحك سلاح ماضٍ ذو حدّ واحد .

لو ضحك السجناء كلهم ، في لحظة واحدة معاً ،

واستمروا في الضحك ،

هل يستطيع السجان أن يضحك ؟

إذا قالوا لكم إن الضحك بلا سبب من قلة الأدب ،

فكونوا قليلي الأدب !

شرّ البلية ما يضحك .

فهل هناك بليّة أشر من هذه البليّة ؟

إضحكوا !

العين للبصر والأذن للسمع واليد للّمس والفم

للّقْبَل .

فاضحكوا!!

ولولا خوفاي من أن ينتبهوا إلى هذا السلاح  
فيُشرِّعوا قانوناً يحظرون به عليكم ماء البحر

والضحك ..

لأغرقتكم بالضحك .

إضحكوا!!» .

ونكون نضحك ونصقّ . ونكون في هرج ومرج . وتكون المرأة

تردّد هتافها وتلمس دُبُر الحمار وذيله بكفها البضة . وإذا  
بالمهرج يصقّ بصنّجيه ويتحوّل نحو الفتاة المُهندمة قائلاً:

المهرج : السلام يحيا، يا ستّ الحسن، يحيا السلام .

ولكن، ما هذا؟

ست الحسن : حمار .

المهرج : أشهر من أن يُعرّف . ولكن . أما كان أصلح لك

أن تقتني درّاجة؟

ست الحسن : هذا يطلع الطلعة بغير جهد منّي .

المهرج : درّاجة بخارية .

ست الحسن : هذا يأكل شعيراً ولا يحتاج إلى بنزِيل .

المهرج : بنزِيل؟

ست الحسن : بنزيم .

المهرج: نفظ، يا ستّ الحسن. نفظ. بترول. بترول. بترول..  
ست الحسن: بترول؟ هذا هو اسمه؟  
بترو.

المهرج: وله اسم. عاشت الأسامي.  
تساوينا والحمد لله.

ست الحسن: بهذا الاسم - بترو - وجدتهم ينادونه.  
المهرج: أين؟

ست الحسن: على شاطئ في بحر البلطيق.  
المهرج: هل استولى عليه الأوروبيون مصدرأً بديلاً  
للطاقة؟

ست الحسن: طاقة الإخفاء؟ كان حاسر الرأس حافياً.  
المهرج: الطاقة!

الطاقة البترولية يا ستّ الحسن.  
الطاقة البترولية التي تجفّ وتبقى المستنقعات.  
الليموزينات والمستنقعات.  
بعد أن ملأوا معاصم نسائهم بالأساور الدبّابات،  
أخذوا يشترون الدبّابات. الدبّابات للمحافظة  
على المستنقعات.  
هل سيلاحقوننا على الحمير بعد أن جقفوا  
البترول؟

ألا يكفون شرهم عنا؟

بعد البترو دولارز حميرو دولارز؟!

ست الحسن: وجدتهم يعرضونه على المصطافين في الشمال.

كانوا يركبونه. كل راكب الدقيقة بشلن.

فبكيت.

المهرج: بكيت؟

ست الحسن: مظلوم. ركبوه في كل مكان.

أصله من الشرق وهم أوروبيون.

وطنه في الشرق ويجب أن يعود إلى وطنه.

بترو المسكين..

المهرج: حصل تعارف؟

ست الحسن: قلت إذا كانوا يركبونه فلماذا لا أركبه؟

المهرج: واللقاء؟

ست الحسن: رفع قائمته الأماميتين.

المهرج: بترو..!

ست الحسن: مجرد تحية.

المهرج: ست الحسن..!

ست الحسن: عيب..

المهرج: فكيف انطلقتما؟

ست الحسن: راكباً ومركوباً.

امتطيته فاستراحت ضمائرهم المعدّبة .

المهرج : ضمائرهم ؟

ست الحسن : ضمير أوروبا النقي .

أورو ضمير!

إذا تلطّخ وعذبهم غسلوه بالدموع وبالدماء حتى  
يطهر .

المهرج : بالدموع وبالدماء ؟

ست الحسن : بدموعهم وبدماء الشعوب الأخرى .

أورو حمير ..

المهرج : فكيف سمحوا له بالدخول إلى وطن الآباء  
والأجداد ؟

ست الحسن : خيروه بين أمرين لا ثالث لهما .

إما أن يثبت أنه مخصي ..

المهرج : تقصدين مخصي .

مخصي يا ست الحسن .

ست الحسن : لا . مخصي هذه المرة .

خ خ خ . مخصي .

المهرج : كلنا مخصي . وكلنا مسؤول عن بيضاته .

ست الحسن : أو يُبرز شهادة يُثبت بها أن أمّه كانت هنا من قبل

ألفي عام .



المهرج : ماذا كانت تفعل هنا؟

ست الحسن : جاهل! حمار!

كلُّكم حمار!

المهرج : بدأنا..؟

ست الحسن : لو لم تكونوا حميراً لاضطرَّ حماري إلى خلع جلده.

المهرج : تأدّبي!

ست الحسن : لا تلوّموا حماري.

(وإذا بالمرأة تجهش بالبكاء وتولول).

المهرج : والآن! ما يُبكيك يا ست الحسن؟

ست الحسن : الجليل.

المهرج : ما له؟ كفى الشر؟

ست الحسن : بترو يرفض أن يستوطن في مكان آخر.  
إما الجليل أو الموت الزؤام.

يحي السلام! يحي السلام!

المهرج : ولا في القرية التي تمشي على أربع؟

ست الحسن : الجليل لا الخليل!

يحي السلام! يحي السلام!

المهرج: حلو. حلو.

ولكن، ما شأن الاستيطان بالسلام؟

ست الحسن: السلام على الجليل!

المهرج: وأهل الجليل ورحمة الله وبركاته.

ولكن..؟

ست الحسن: لكن أو ما لكن، بترو محبّ للسلام.

المهرج: سلام؟!

ست الحسن: سلام أو لا سلام. بترو مبدئي.

المهرج: مبدئي؟!

ست الحسن: مبدئيّ أو لا مبدئيّ. بترو ليس من «چوش

إيمونيم».

المهرج: أيضاً؟!

ست الحسن: بترو يرفض أن يرعى خارج الخط الأخضر ولا يأكل

عُليّقه إلا في الزريبة.

الجليل لا الخليل!

يحيي السلام! يحيي السلام!

المهرج: زريبة يا بنت الغربية!

فلماذا كنت تبكين؟

ست الحسن: التهويد!

المهرج: ما له؟ كفى الشرّ!

ست الحسن : يقولون إنهم يريدون تهويد الجليل لا تحميره .

المهرج : يلعن الحمير وسيرتها!

ست الحسن : يا عدو السلام!

المهرج : من ؟ أنا ؟

ست الحسن : بربري ! برابرة ! فاشِست !

المهرج : مَنْ ؟ نحن ؟

ست الحسن : يا عدو الإنسانية والمدنية والعالم الحر!

يا عدو الديمقراطية وأمرهم شورى بينهم!

المهرج : واحدة واحدة .

ست الحسن : كلّه !

يا عدو البساتين والزهور والرياض والحدائق

الشعبية

ويارك كندا

ويارك تشرشل

ويارك ترومان

ويارك سوموزا ويارك فرموزا!

المهرج : هدّي على بغلتك !

ست الحسن : يا قاتل الأطفال والنساء الحوامل !

لا حماري !

المهرج : لا حماري ؟

ست الحسن : لا حماري !

المهرج : نحن أولاد عمّ يا ستّ الحسن !

ست الحسن : لا حماري !

لا حماري أحمر .

أحمر حماري ! ماري . ري . يبيي .

وتنفجر بالصراخ وباللولة . والمهرج يقف مبهوراً . وأما نحن  
فنقعد على مثل حاله .

وتقفز ستّ الحسن فإذا هي فوق ظهر حمارها تُشرع في  
يدها عصاها وتشنّ الغارة على المهرج وهي تُرغي وتُزبد  
وتُنشد :

« حماري كان دلال المنايا

فخاض غمارها وشرى وباعا

وسيفي كان في الهيجا طبيباً

يداوي رأس من يشكو الصداعا »

وتنحر المهرج بعصاها وهي تصيح :

« الفاشوش ! الفاشوش !

يا لثارات العروش !

رؤوسهم داويتها وأعجازهم ثبتها على العروش .

سيف . فليشرع .  
الآن ، الآن ، وليس غداً  
أجراس العودة فلتُقرع !  
يا لثارات بحر البلطيق ! يا لثارات الرومان  
والإغريق ! إنهق ،  
يا حماري ، فقد حمّ النهيق ! » .

وتحوّل عصاها نحو الحمار نفسه . تارة تهمزه في مؤخرته  
وتارة تضربه على رأسه حتى يشرع في النهيق الحقيقي . فتعود  
إلى شنّ الغارة على المهرج بمزيد من الحماس وهي تصيح  
متفائلة :

« لقد نهق ! متحمّس ! سعيداً ! » .

فيتحاشاها المهرج ويراوغها وهو يستعطفها أن تترقّب بالحمار  
ويقول :

« ترفّقي بالحمار ! الحمار حمارك ! الحمار ينهق من  
شدة الوجد ! » .

فتجيبه ، وهي تصول وتجول :

« تموت الحمير ويحيى الوطن ! تموت الحمير

ويحيى الإسطبل! تموت الحمير وتحبى الزريبة!  
تموت الحمير وتحبى الزريبة!» .

وتغيب عن أنظارنا وهي تردّد هذا الشعر المثير حتى يتلاشى .

جريدة من الوطاويط تصيت :  
وط . وط . يوط . يوط !

وفيما نكون بين مُعجب ولائم، ومصفق وواجم، إذا بالمهرج  
يعود إلينا وهو يصلح هندامه ويتنهَّد ثم يقول :

« كلنا في الهم شرق

كلنا في الصبر شرق

كلنا في الصبر حمار .

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا

وأورثوا الدِّين تقليداً كما وُجدوا

فما يراعون ما قالوا وما سمعوا

ولا يبالون - من غي<sup>!</sup> - لمن سجدوا» (\*)

«اقرأوا الدِّين دِيناً حتى تمضي هذه الليلة علينا

بسلام . الأبيات لأبي العلاء . وتُخطئون إن

حسبتم أنهم دَسَّوا السمَّ في طعام شاعرنا

الفيلسوف بجريرتها . فالسماء لا تدسّ السمَّ

للمستظلمين بها بل تظلملهم . حاشا أن يقتله

صاحب الدِّين بل قتله أصحاب الدِّين . أولئك

الذين دعا الناس إلى أن لا يسجدوا لهم .  
لا، يا ستّ الحسن، لست لا حمارياً . فكَلْنَا عبيد  
الله . وأنا أُجِلُّ الحمار عن أن أُطالبه بما أُطالب  
به ذوي العقل واليد واللسان .  
خصوصاً وأن حمارك، يا ستّ الحسن، لا يرى  
حوله سوى الصابرين والصابرات .»

وإذا ببدر أم بدر، بدور ذات الجمال الخريفي، تعود إلى المهرج  
تهرول وأمارات الاستياء بادية على وجهها . وتتقدّم نحوه  
معنّفة وتقول:

« هناك من لم يصبر، يا ابن عمّي !  
أَتَغْمِطُ بدرًا نفاذ صبره؟  
إن بدرًا لم يصبر يا ابن غمرة .  
ولا بدران . ولا بدرية . ولا بيدرا! » .

فيجيبها المهرج:

« بدر قتله الصبر، يا بدور .  
الصبر الموروث . الزمن الضائع .  
ألم تسألني نفسك، يوماً، لماذا اخترنا كلمة الجلالة  
كي نغدها على أصحاب الجلالة؟



فآبأؤنا لم يروا من الجلال، ولم يبهرهم، سوى  
جلال الدابة - البردعة.

جلل الإجلاء بها ظهور دوابهم حتى لا تتأذى  
أعجازهم الرخوة.

فهل أصبح أصحاب الجلالة أصحاب جلاله لأننا  
أركبناهم على الأجلال؟ على البرادع؟».

بدور: بدر قتله نفاذ الصبر من هذا الأمر.

المهرج: بدر بريء. بدر بطل.

بدر القتييل يا أم بدر.

فلماذا أنتم ساجدون للأعجاز المستجلّة؟  
حاجة..

المهرج: فأية حاجة دفعتكم إلى أن تُبردعوا دوابكم؟

بدور: في بلاد العورِ اعورِ عينك.

المهرج: عراة من وطن ومن علم

وسروجهم من ذهب؟

بدور: «كل حزب بما لديهم فرحون» (\*\*)

المهرج: صدق الله العظيم.

فلماذا نلوم المجوس؟

بدور: المجوس؟

المهرج: كلام عاشقين، يا بدور، لا يفهمه سوانا.

بدور: عشقنا ممنوع.

المهرج: العشق ممنوع.

بدور: ما شأن المجوس؟

المهرج: رحم الله أبا العلاء المعري، شاعرنا الفيلسوف.

مات مسموماً لأنه قال، فيما قال، ما سوف أُحرّفه

كي أموت مسموماً:

هفت الحنيفة والنصاري ما اهدتوا

ويهود حارت والمجوس مضلله

إثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا

صبر وآخر صابر لا عقل له!

فلماذا نلوم المجوس؟

هل فهمتم؟

ويخرجنا كلامه . ويكون بيننا مثقفون قرأوا لزوميات المعري،

في لزوم ما لا يلزم . فادركوا التحريف الذي أجراه المهرج على

البيتين اللذنين استشهد بهما، حتى لا يُستشهد . فنسمعهم

يهمهمون في فزع: « لا لزوم لهذا الشعر! لا لزوم! لا لزوم! » .

فبيتسم المهرج ويعيد علينا سؤاله:

« هل فهمتم أم أشرح؟ أجيبوا؟ » .

فيُطبق صمت . فلا يكفّ المهرج عنّا . ويقول :

« الذين لم يفهموا معذورون

والذين فهموا أصابهم الذعر الثقافي » .

بدور: الذعر الثقافي؟

المهرج: ذعر الإنسان المثقف من أعباء ثقافته .

لقد تفشّى هذا المرض في الشرق حتى أذاقنا  
الانفصام والموت الزؤام .

ذعر الإنسان المثقف من علمه بأنه إنسان .

فيعروه الخوف من الناس الآخرين أن يكتشفوا أنه  
ليس دابةً .

فيدبّ على أربعٍ إمعاناً في صون السر .

صوت من القاعة: على رسلك، يا ابن غمرة!

تكتك - تكتك!

المهرج: اطمئنوا، أيها المثقفون .

لن أكشف سرّكم .

لن أعرض حياتكم للامتحان الأخير الذي امتحن  
به فيلسوف المعرفة:

اطمئنوا يا أحفاد جاليليو وأبي الطيّب وأبي  
محفوظ .

أصبح الصبر في شرقنا ديناً .

وهذا هو دَيْتُكُمْ عليّ .

اصبروا!

اصبروا حتى تمرّ هذه الغمامة .

سحابة صيف!

اصبروا حتى الصيف القادم

ستستركم سحابة صيف أُخرى .

فحتى الصيف الذي بعده

وبعده . وبعده . وبعده .

الصوت : تكتك ! تكتك !

بدور : أكلته التكتكة .

المهرج : اطمئنوا يا أولادي .

تكتكنا وسنظلّ نتكتك حتى تقوم الساعة!

ها أنا أنكبّ على وجهي وأدبّ على أربع،

تكتكة، حتى تطمئنوا إليّ ..

وإذا به يهبط على أربع ثم يحبو على أربع . وهو يهزّ مقدّمته  
ومؤخّرتة فنسمع أصوات الأجراس والحوافر . تلك ترنّ وهذه  
تخرخش .

وفيما نكون مبهورين بهذا التغيّر المفاجئ في وضع المهرج،  
إذا بجريدة من الوطاويط - آدميين في أسمال سوداء وقد

تقنّعوا برؤوس وطواطيّة، يندفعون نحو المهرج وهم يصيِّتون:  
«وط. وط. يوط. يوط». ويتكالبون عليه. يمتطون ظهره  
ويشدّون أذنيه ويوقعونه أرضاً.  
وتحاول بدور أن تفرّقهم عنه. وتكون، في هذه الأثناء،  
تصرخ وتولول:

«الوطاويط! الوطاويط!  
ألا تعرف الوطاويط حدوداً؟  
ألا تُفتح الحدود إلا للوطاويط؟!  
الوطاويط! الوطاويط!  
لعن الله التكتكة!».

فيستعيد المهرج رباطة جأشه. فينتفض منتصباً على قدميه،  
مبعثراً الوطاويط من كل جانب كأنه چوليقر في بلاد الأقرام..  
ونسמעه يصرخ من سويداء قلبه:

«قامت الساعة! أنا الساعة!

أضيئوا الحقيقة!

أشعلوا الإنسان!

أطلقوا السجّية!

انطلقوا!

الجدع جدع

## والجبان جبان .»

وَتُسَلَطُ عَلَيْنَا مَصَابِيحَ كَشَافَةِ تَرْسُلِ أَضْوَاءِهَا السَّاطِعَةِ عَلَى  
أَشْبَاحِ عَفْرِيَّتِيَّةٍ . فَتَكْبِرُ الْأَشْبَاحَ وَتَكْبِرُ حَتَّى تَتَلَاشَى .

ويكون المهرج يغني: «الجدع جدع والجبان جبان» ونحن  
نصحه في نشيد منشدين ومصفقين: النشيد على إيقاع  
التصفيق والتصفيق على إيقاع النشيد .

«الجدع جدع

والجبان جبان .»

فتختفي الرطاويط .

(\*) من لزوميات المعري .

(\*\*) آية قرآنية .

## سنة عشر لويساً ولويس عوض

ويشعر المهرج في نفض التراب عن ثيابه . ويجمع ما تناثر  
على الأرض من متاعه . ويسوي هندامه . ونحن في عجب  
من حاله : هل هو الجبان أم هو الجذع ؟  
ونحن ؟

فلا يتركنا مذبذبين بين ذلك طويلاً . بل نراه يكفّ ، فجأة ،  
عماً شرع فيه . ويجلس على مقعد الصندوق فجأة . ويأخذ  
فجأة في البكاء المسموع بلا تخرج منّا أو استحياء .  
فتهمّ بدور به وهي مهمومة . وتجلس في محاذاته . وتطوّقه  
بذراعها وهي تحاول أن تسرّي عنه . ونسمعها تلحّ عليه  
بالسؤال :

« تبكي ، يا حنين الصبّا ؟

تبكي ، يا أمل ؟

حتى حين أكرهوك على الركوع ، لم تركع إلا  
زحفاً نحو الأسلاك الشائكة لتخترقها .

رأينا خيالك منتصباً .

كانت له عينان شاخصتان .

تبحثان عنّا في عتاب .  
تبحثان في أمل .  
جذور موغلة في التربة .  
شجرة طيّبة .  
أصلها ثابت وفرعها في السماء .  
جذلة سليبٌ أورقت وبسقت تحدياً .  
و حين دفعونا من الخلف ، لنقع على وجوهنا ،  
سمّرنا خيالك الفراع  
وأخجلنا :

عيب يا بدرا عيب يا بدرية!  
والآن، الآن، ما يبكيك يا حنين الصُّبا؟  
الوطاويط؟  
الزمن المضيّع؟» .

فيجيبها المهرج :

« أبكي على الأعمار المضيّعة .  
أبكي على حالي .  
أبكي على الشكلى . أبكي على الأرامل .  
أبكي على بدر ، يا بدور» .  
بدر جدع . بدر ابن أبيه .

بدور :



بدر ابنك .

بدر لم تفترسه الوطاويط .

المهرج : الوطاويط لا تفترس بدرًا .

مضت إلى غير رجعة أيام الحوت الذي كان يلتهم  
البدر .

لم يتركوا لبدر مكانًا يتذبذب فيه ويتكتك .  
بدر غير مخير .

بدور : بدر فارس . بدر اختار الشهادة .

المهرج : فإذا لم يخترها، هل يعيش؟

بدور : أين يعيش؟ كيف يعيش؟

وإذا بالمهرج ينتفض واقفًا ويأخذ في الصراخ كمن به مسّ :

« تبًّا لك يا أبا الطيب !

يا دجال نبي الدجالين .

يا قرمطي مرتدّ، مارق، ميكياقيلي !

قال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثاني

طزّ ..

طزّ كبيرة ولو مرة واحدة في العمرا

طُزَ حَقِيقِيَّةٌ بِلَا تَشْخِيسٍ .

بِلَا تَشْخِيسٍ ؟

يَا لَللَّهِ .. بِلَا تَشْخِيسٍ فِي تَشْخِيسٍ .

تَكْتِكُ ..

بِدَوْرٍ ! بِدَوْرٍ ! .

بِدَوْرٍ : سَلَامَتِكَ يَا ابْنَ عَمِّي .

المَهْرَجُ : مَتَى نَكُونُ نَشْخَصُ وَمَتَى نَنْطَلِقُ عَلَي سَجِّيْتِنَا ؟

بِدَوْرٍ : اعْتَصِمِ بِالصَّبْرِ ، يَا ابْنَ عَمِّي .

المَهْرَجُ : بِدَوْرٍ !

مَتَى كَانَتْ عَصَمْتِنَا فِي أَيْدِينَا ؟

بِدَوْرٍ : سَتَكُونُ يَا ابْنَ عَمِّي .

المَهْرَجُ : بِدَوْرٍ !

أَتَعْلَمِينَ لِمَاذَا أَحْجَمُ أَجْدَادُنَا عَنِ تَعَاظِي الْفَنِّ

الْمَسْرُحِيِّ ؟ عَنِ التَّشْخِيسِ ؟

بِدَوْرٍ : قَالُوا أَصْحَابُ الدُّيْنِ - يَا رَبِّي - الدُّيْنِ .

المَهْرَجُ : بَلْ لِأَنَّهُمْ ارْتَدَوْا ثِيَابَ الْمَسْرُحِ طَوَّلَ حَيَاتِهِمْ .

عَاشُوا مَشْخَصِينَ .

ظَهَرُوا أَمَامَ السَّادَةِ بِأَقْنَعَةِ التَّشْخِيسِ .

فَبِأَيِّ شَكْلِ يَظْهَرُونَ عَلَي الْمَسْرُحِ ؟

بِدَوْرٍ : سَتَرِيْتِيْزِ . عُرَاةُ !

حين عرّوهم تقرمطوا، يا بدور .  
عاشوا عُراة .

قلبوا الأرض عُراة .

قبلوا جراحهم العارية .

غطّوا وراء اللؤلؤ عُراة .

ناموا عُراة إلا من أحلامهم .

ثاروا عُراة إلا من هاماتهم .

أكلوا الصخر العاري .

ولكنهم حافظوا على قاماتهم منتصبية .

هاماتهم شامخة .

ناساً . بشراً - بني آدم!

صُلبوا منتصبي القامة، عُراة .

مُنتصبي القامة، عُراة .

عالين!

فاعترى الصالبين الفرع . فملأوا الوديان بالصلبان

ورؤوس الجبال .

حتى إذا جاء الصليبيون بالصليب وجدوا هذه

النبته

أصبحت حرّة في بلادنا .

بريّة في بلادنا .

عُلَيْقًا منتشرًا في الجبال والوديان .  
عراقيل أمام تقدم الدبابات .  
أسلاكًا شائكة مكهربة .  
أحراشًا كثيفة تحتضن الثوار  
تستر الثوار  
غابات من الهامات .  
فغرقوا في وادي الصليب .  
غرقوا في وادي الصليب .  
خَقَفَ الوطاء وتنقَّس الصعداء!  
الأرض أضرحة  
والهواء أضرحة .  
أضرحة لا تُنبش  
النسمة آثارنا . فتتنقَّس الصعداء .  
شهيق . زفير .  
شهيق . زفير .  
أولئك آبائي . أجدادي .  
علو في الحياة وفي الممات .  
لا إحدى المعجزات ولا مُعجزة .  
لا اختيار!  
جننا بشرًا ونمضي بشرًا .

لم نخير.

وإذا خيّرنا، هل نختر، أن نولد خنازير؟!!

بدور: خذني معك . أعود إليك .

لن أتركك .

خذني معك!

المهرج: إلا ذلك القرمطي المرتدّ .

المارق . الجبان . المدلّل!

قال: الرأي قبل شجاعة الشجعان،

فإذا هما اجتمعا بنفس حرّة

بلغت من الدنيا أعزّ مكان ..

طزّ..!

وطلاب أي مكان، مكان تحت الشمس؟

نفوس حرّة لا يجتمع بها سوى القهر والغربة،

الغربة في كل مكان!

هنود القرن العشرين الحمر

يا لذوي القربى!

إلى أين يرتدون؟

بدور: « طلع بدر ..

أورق بدر ..

اكتمل بدر .. »

المهرج: إلى أين تتردّ الكثرة المسحوقة؟

كيف تتكتك؟

حتى اللبوات الأسيرة في السيرك تُتكتك .

توفر لحم مدربها فيطعمها جيّفة .

أما لبواتنا الحبيسة فلا مكان لها حتى ولا في

السُّرك!

يا لذوي القربى وأبناء عمّهم!

هل أبقوا لها من طعام سوى لحومهم؟

إلى أين تتردّ الكثرة المسحوقة؟

بدور: وابدراه! يا ولداه!

قم بدر .

أطلع بدرأ .

أنطق صخرأ .

حرّك ضميرأ .

أتسمعه يا نجيب محفوظ؟

يا مرتدأ إلى أرذل العمر،

إلى ما بين القصرين؟

المهرج: إلى أين يرتدّ الذين إما أن يعيشوا وإما أن لا

يعيشوا؟

بدور: غرّد بدر .

أطلع بدرأ.

أنطق صخرأ.

حرّك ضميرأ.

أسمعه يا توفيق الحكيم؟

أيها العصفور المقعد في مزبلة شريقيّة.

المهرج: إلى أين؟ إلى أين؟

بدور: إزار بدر.

أطلع بدرأ.

أنطق صخرأ.

حرّك ضميرأ.

أسمعه يا لويس عوض؟ يا فيلسوف الخوف؟

ماذا تقول؟

صوت: أقول: إن نجيب محفوظ خائف. وهذا ليس رأيه.

ولكنه، كتوفيق الحكيم، يحمي نفسه من عدوان

الدولة، كي يمنحنا فنأ جميلاً (\*)

بدور: طاقات من الزهور الاصطناعيّة

فوق أضرحة من الرّخام.

إن ضريح بدر دائم الخُضرة.

المهرج: والمسحوقون! الكثرة.

كيف ينقذهم الخوف؟

الفنانون الذين يمنحوننا المسكن، يشيّدونه حجراً  
حجراً،

ويحطبون الصخر،

الفنانون الذين يمنحوننا الغذاء

ويجوعون .

يمنحوننا الكساء

ويعرون!

ماذا ينفعهم الخوف من عدوان الدولة؟

بدور: ألم يكفك، يا لويس، ستة عشر لويساً؟

المهرج: مسلوب اللقمة، الجائع،

يرى أطفاله يموتون جوعاً ..

هل يمضي الوقت بين الرأي والشجاعة حتى يموت

الطفل الأول؟

أو ينتظر حتى يموت الطفل الثاني؟

أو ينتظر حتى يموت الطفل الثالث؟

أو ينتظر حتى يموتوا جميعاً؟!

بدور: الفن جميل .. ( وتلفظها بالجيم المصريّة ) .

المهرج: ومسلوب الأرض والوطن!

هل يقعد في الفسحة بين الرأي والشجاعة حتى

تضع الحرب الصليبية أوزارها، .



ويستيقظ الضمير؟!

بدور: خازوق . خازوق .

المهرج: والمحمول على الأسنّة إلى الأرجوحة!

على بساط أرجواني يتأرجح بين الرأي  
والشجاعة؟

إلى أين يتراجع؟

إلى أين؟ إلى أين؟

(\*) لويس عوض في صحيفة «السياسة» الكويتية، عدد  
١٩٧٩/٣/٤ .

بدر! .. كلُّهم ولدي بدر!

وإذا بموسيقى كنيسة غيبية تندفع مثل موجة هادرة حتى  
تغرقنا في بحر من الغيبوبة. موجة تعطرت برائحة البخور.  
ويكونون قد أحرقوه فتضوّعت رائحته المغيبة.  
وإذا بحبال تُدلى من سقف المسرح. كل حبل وفي نهايته  
أنشطة. وهي أشبه بحبال المشانق.  
وتهرع بدور إلى المهرج وهي مُشفقة عليه. ويسمّعها همس  
في أذنه حتى نسمعها:

« حبال المشانق؟ حبال المشانق؟

هناك!

وهنا أيضاً؟! ».

المهرج: رموز، يا بدور، مجرد رموز.  
تتعدّد الأسباب والموت واحد.  
حيّرني أمري.

فأي الرموز أختار؟

بدور: المقصلة!

المهرج: الشرق شرق والغرب غرب

ولم نبلغ، بعد، هذا الشأو في المدنيّة .

بدور: الصّلب!

المهرج: منذ أفغانستان أصبحت حروبهم هلالية!

حيرني أمرهم .

بدور: الخازوق!

المهرج: لم يعد الخازوق رمزاً، يا بدور .

أصبح الخازوق حياتنا اليوميّة .

بدور: والبلطة؟

المهرج: تتنافى والمدنيّة ..

والضمير الأعمى،

موت مكشوف!

ولكنهم لا يتعاطون الموت المكشوف .

بدور: فكيف تُقتلون؟

المهرج: اختناقاً ..

ملايين العناكب تنسج خيوطها حول رقابنا

وأفواهنا وأنوفنا .

يصبح التمطّي تهديماً .

والتنفّس استهانة بجمعيّات الرّفق بالحيوان .

تلتهمنا الأكاذيب . تُفري لحومنا عن عظامنا .

وأما الصحف الحرّة فتسلق هذه العظام حساء .

وحين تكون الدبابة في حالة الدفاع عن نفسها

من حصى الأطفال،

نُقتل رمياً بالرصاص!

وقُتلنا، أيضاً، لمجرد سوء فهم..

حسبتهم ألغوا عقوبة الإعدام.

بدور:

رجالكم الإنسانيين - الواحة!

وجدوها تثقل على ضمير المحكمة.

المهرج:

أغمضوا عيني الضمير ونقذوها خارج القاعة.

حتى يظل ضمير القاتل نقياً.

القاتل ذو الضمير النقي!!

أرقى مستحدثات المدنية في القرن العشرين.

أرقى من الخيوط الاصطناعية ومن البلاستيك

ومن الكومبيوتر.

روبوت! روبوت!

ولكنهم يقتلوننا..

بدور:

خارج القاعة..

المهرج:

إن لهم في أرضكم الواسعة متسعاً لهذا الأمر.

النهر طويل. والكمائن على الجانبين.

أقبية السجن معتمة.

والسجان دولة.

السجّان پروفیسور .  
السجّان مقتنع .  
السجّان مرتاح الضمير .  
الرصاصات الطائشة تصيب أهدافها  
فيحشدون لجان التحقيق .  
ويعتذرون .  
يظلّ الضمير البلاستيك نقيًا .  
يحنو على أطفاله  
ويحمل إلى زوجته طاقة زهور .  
ويتذوّق الموسيقى .  
ويناقشك في السبرنتيك  
ويدافع عن بيكوفسكي .  
أنزلوها عن ضمير أوروبا، يا بدور،  
وأنزلوها بكم بقانون غير مكتوب،  
بقانون محفوظ على ظهر قلب،  
اسمه الحرب هي الحرب!

بدور: حرب!؟

فتنطلق أصوات جوقة من الصبايا . صرخات حادة كأنها  
أصوات العروس والأخوات يزغردن، معاً، لعودة الفارس قتيلاً:

«أحصدوهم!

أحصدوهم!

أحصدوا!».

ويأتينا صوت المهرج وهو ينادي:

«عبد الله بن عبد الله، أبا عبد الله!

يا عبد الله!».

فيقبل عليه شاب في ربيع العمر، مشرق الوجه إشراقة فجر ربيعي على صخور شاطئ في بلادنا. ويبدو عارياً إلا من ثوب مزند أحمر خفيف الحمرة، ضيق حتى يلتصق بجسمه يشد على تقاطيعه ومفاصله وكأنه عارٍ. وقد ولد بهذا الثوب أو أنهم أهملوا غسله في ساعة الميلاد أو أنه قد وُلد من جديد ويكون الشاب يهتف:

«لبيك، يا عمّاه. لبيك. لبيك».

المهرج: أقبلت، يا بُنيّ، وأقبلت ساعة الحقيقة.

فتصرخ بدور:

«بدر؟! بدراه! ولدي بدر!»

المهرج: كلهم بدر، يا بدور..

بدور: ولدي ..

المهرج: كلهم أولادك يا بدور.

تعالني نُخْلي له الساحة.

دعيه يتكلم، هو نفسه!

تكلم بدر!

الشاب: لبيك، يا عمّاه. لبيك. لبيك.

فيلتقط المهرج صَنْجِيَه. ويصفق بهما ثلاثاً وينادي:

«إطفي النور. إطفي النور.

الدور، الآن، على مسرور.

السيّاف مسرور!».

فيعمّ الظلام. فنسمع ضحكاً، أشبه بهدير الإبل، وجَلَبَة.

ويأتينا صوت المهرج وهو يقول:

« مسرور السيّاف جداً. مسرور جداً! ».

وتتسلّل، من كوة في طرف المسرح، حزمة ضوء فتنجلي الجلبة

عن رجل سيّاف بسيفه المشرع. ولولا سيفه والنطع الذي

يحمّله في اليد الأخرى ما كان من الممكن أن نعرف هذه المهنة

التي يمتّنها. خصوصاً وأننا كنّا علمنا أن « مسرور »

الأسطوريّ منهنك الآن في تعشيب الرياض .

فلباسه لا يطابق دوره في شيء : لباس السهرة الأوروبي  
الرسمي الأسود وقبّعة سوداء مربعة الأطراف يعتمرها فوق  
رأسه . وأما الحذاء فأسود شديد اللمعان . إن هذا السيّاف  
- يا للروعة - خرّيج جامعيّ ولا يفوتنا ، بالطبع ، هذا التخريج .  
ويكون السيّاف ، الخريج الجامعيّ ، يلاعب سيفه ويفرش  
على الأرض ، باليد الأخرى ، النّطع المخضّب بالدماء .

كيف يكون النّطع ؟

هل فرشوه فوق شمس الرياض ؟

سمعنا عن العبادة التي أرادوا أن يُخفوا بها عين الشمس .  
ورأينا ، على الشاشتين ، بساط الريح والبساط الأحمر الذي  
يفرشونه تحت أقدام ملوك وأمراء وشيوخ ورؤساء . وفي بيوتنا  
تعشّينا على الحصير ونمنا على الحصير . والنفس الحرّة ، كما  
تعلمون ، تنام على البرش ولا تتأرجح إلا على الأرجوحة  
الحمراء . وذلك لأنها لم تُخلق لكي تمنحنا « الفن الجميل » .  
خلّقت ، يا للهول ، لمجرد أن تعيش !

فأياً منها اختاروا نطعاً مخضّباً بالدماء : العبادة التي لم تخف  
عين الشمس ، بساط الريح ، البساط الأحمر ، الحصير أو البرش ؟  
لا هذا ولا ذلك مما ذكرنا . بل اختاروا ، نطعاً ، خرقة قديمة  
بالية وهلّة ، خرقة من الخيش ، اخترقتها فتحات الزمن في



وسطها وفي أطرافها. خرقة حمراء متراكمة الحمرة، طبقات طبقات. ولولا أنها ترمز إلى النُّطع لحسبنا أنها خرقة ممسحة أحضرها أحدهم من بيت جدته.

على رِسْلِكُمْ! لماذا سمّوا الجدّة جدّة؟ لأنّها تظلّ تمسح، بالممسحة، الأرض والجدران ومتاع البيت حتى تعود إلى البيت جدّته؟ فلماذا، إذا كان هذا التأويل صحيحاً، لم يسمّوا الزوجة جدّة والبنت والعمّة والأرمل؟

مالنا!

أما السيّاف، السموكن، فبعد أن يكون قد نحر المهرج وبدورَ فانتحيا مكاناً قصياً، نراه يفرش النطع الخرقه بينه وبين الشاب الربيعيّ حتى يقفا عليه وجهاً لوجه.

ويجري بينهما هذا الحوار:

السيّاف: اسمك؟

الشاب: ربيع.

السيّاف: اسمك الذي وُلدت به؟

الشاب: وُلدت بلا اسم.

السيّاف: اسمك الحركيّ؟

الشاب: شعب.

السيّاف: اسمك كلب!

الشاب: حقّ التسمية للوالدين.

- السيّاف : أنت كلب !
- الشاب : لم اختر هويّتي .
- وإذا اخترتها ما غيرت .
- السيّاف : امشِ على أربع يا كلب !
- الشاب : لم تُعوّذني أمّي .
- السيّاف : اعوِّ عواء الكلب !
- الشاب : حتى ولا الأنين !
- السيّاف : تلوح عليك إمارات العِلم .
- الشاب : لا أجهلك .
- السيّاف : وأنا عالم .
- الشاب : ما أجهلك !
- السيّاف : بيدي أن أرْكُعك .
- الشاب : أقوم وأقف .
- السيّاف : سأوجعك . أقتلع أظافرك .
- الشاب : قد فعلت ..
- السيّاف : الرأي يا بُنيّ ..
- الشاب : لست ابنك .
- السيّاف : الرأي قبل شجاعة الشجعان .
- الشاب : الشجاعة رأيي .
- السيّاف : صغير أنت . لم تدمن ، بعد ، على لذّة الحياة

- يا ربيع .
- الشاب : ولا على المذلة .
- السيّاف : لنتفاوض .
- الشاب : النّطع ليس للمفاوضة . سيّاف ومسيّف .
- السيّاف : هل من بديل ؟
- الشاب : اطوِ النطع وأغمد السيف !
- السيّاف : وسيفي ؟
- الشاب : نصكّه محراثاً .
- السيّاف : ودبّابتي ؟
- الشاب : نرجعها تركتوراً .
- السيّاف : وطائرتي ؟
- الشاب : نرشّ بها المبيدات .
- السيّاف : وأمريكبي ؟
- الشاب : ننكحه سويةً .
- السيّاف : شيوعي !
- الشاب : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم  
أحراراً؟! (\*)
- السيّاف : شيعي !
- الشاب : عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج  
إلى الناس شاهراً سيفه! (\*\*)

- السِّيف : عميل !
- الشاب : عامل !
- السِّيف : موسكوا
- الشاب : لم نعد وحدنا .
- السِّيف : ألا تحب الحياة ؟
- الشاب : حتى الموت !
- السِّيف : ما أهون الموت عليكم !
- الشاب : ما أهون القتل عليك !
- السِّيف : مخرَّب !
- الشاب : أحب أمِّي وأُحب حبيبتي وأُحب الشُّعر .
- السِّيف : ورثت النعمة !
- الشاب : ورثت رائحة البحر .
- السِّيف : غيره ؟
- الشاب : وحكايات أبي .
- السِّيف : مخرَّب ! ماذا تريد ؟
- الشاب : أتوق إلى الطمانينة .
- السِّيف : غيره ؟
- الشاب : وحديقة .
- السِّيف : وغيره ؟
- الشاب : والنوم على هدير الموج

وزخ المطر

لا على زخ القنابل.

السيّاف: مخرب! ماذا يعيش في رأسك المحموم؟

الشاب: أن أعيش في وطني.

أن أكون كغيري من خلق الله.

أن لا يقولوا عني غريب.

مشرّد، لاجئ.

أن لا أتسلّل إلى وطني.

السيّاف: لا تتسلّل!

الشاب: جئت كي لا أتسلّل!

السيّاف: أنت تكرهنا!

الشاب: أنت تكرهنا!

السيّاف: يتعاضم كرهكم إيانا!

الشاب: يتعاضم كرهك إيانا!

السيّاف: يا قاتل الأطفال. منتقم!

ألم يكن والدك من كفر قاسم؟

بدور: جريمة؟

السيّاف: فمن دير ياسين؟

بدور: جريمة؟

السيّاف: فمن الرملة، من اللد، من يافا،

من صغد، من عيلبون، من عيلوط .

بدور: عداً عداً

السيف: كثيرا كثيرا!

إما هو أو والده!

إن لم يكن والدك فجدك . فعمك فابن عمك!

أحدهم!

أحدهم!

ريفانج ريفانج ريفانجست!

لو كنا مكانكم ..

الشاب: لن نكون مكانك مهما يحدث من أمر.

السيف: أترضى عن قتل الأطفال؟

الشاب: أنا الطفل القتيل ..

السيف: وأطفالنا؟

الشاب: وأطفالكم ..

السيف: أيها القتلة ..

الشاب: يُقتل القتيل مرة ثانية؟!

فينفجر السيّاف في قهقهة كأنها القرع على صفائح فارغة.  
ويكون يردّد بين القهقهة وأختها:  
«بتّياستكم ا بتّياستكم ا».

(\*) من أقوال عمر بن الخطاب الماثورة.  
(\*\*) من أقوال أبي ذر الغفاري الماثورة.

## مأدبة سُوء

وتتناسخ القهقهة مع أصوات صادرة عن قرع طبول، أشبه بالرعد في آذار. ثم تنشق السماء عن بريق يغشى الأبصار فنرى المشخّصين يتقونه بأكفهم على عيونهم استكفافاً. ويهتف هاتف في مكبرات الصوت أن:

«عُضُّوا أبصاركم، يا أهل الموقف، حتى يعبر الهول الأكبر!».

فيفعلون.

أما السيّاف فيسجد للسيف أمامه. وأما المسيّف والمهرج وبدور فيتحاضنون ورؤوسهم خاشعة.

ويعقب البرق ظلام أشدّ سواداً من حنك الغراب.

فيسود صمت حتى لا نسمع سوى صوت الصمت. ويعمّ ظلام حتى لا نرى سوى أخيلة الموت.

وإذا بصوت خبطة على المسرح تصدر عن ارتطام جسم إنسان يُلقى على الأرض من علّ. نسمع ونفهم ولكن لا نراه.

فخبطة ثانية. فثالثة. وما أن نُحصي ثلاثاً حتى يأتينا صوت



الخبطة الرابعة . فلا تختلف في شيء عن أخواتها، لا في صوت ولا في موت .

ويفجّ النور السماويّ .

فنرى، والدهشة تعقد ألسنتنا، أربعة شبان متساوي الأعمار ومتشابهي الخِلقة والخُلُقَان . وتكون هذه ثياباً بيضاء مرسلة تحرّقت أطرافها واكتست بالسُخام . ونرى فوق كتفي الشاب منهم جناحي ملك . وتكون أطراف الجناح، أيضاً، قد تحرّقت واكتست بالسُخام .

وينشغل ثلاثة من الملائكة – وهم المتقدمون في الارتطام – في نفض السُخام عن أثوابهم البيضاء وفي تمكين الأجنحة من اكتافهم . ونعلم، فيما بعد، أن أسماءهم هي، بحسب الأولويّة في الارتطام: سعدي أبو شارب وسعيد أبو شارين وسعادة شارب الدم .

وأما رابعهم، ونعلم فيما بعد أن اسمه سعادة قلب الأسد، فيكون يحمل سَقُوداً وينادي:

« ساسليك ! ساسليك ! » .

أبو شارين: كيف لحق هذا بنا إلى هنا؟

أبو شارب: أحرّقه معنا خطأً .

شارب الدم: أخ . .

أبو شارين: يكونون أحرّقه تدبيراً حتى يكون علينا عَيْنًا .

قلب الأسد : ساسليك ! ساسليك !

أبو شارب : على ماذا ينادي؟

أبو شاربين : شاشليك ! ساسليك بلهجة المغرب .

يبيع شواء . لحمًا مشويًا .

أبو شارب : أشمّ رائحة شِواء ولا أرى لحمًا .

قلب الأسد : ساسليك ! ساسليك !

أبو شارب : ماذا تبيع، يا أخ؟

شارب الدم : أخ .. أخ !

قلب الأسد : أبيع لحمًا مشويًا .

ساسليك ! ساسليك !

أبو شارب : لحمك أم لحمنا؟

قلب الأسد : على الأرض ما كنت أبيع سوى لحمي .

وابنتي كانت تبيع لحمها .

هل تشعرون بفرق في الرائحة؟

ساسليك ! ساسليك !

شارب الدم : أخ ..

أبو شارب : لكنني لا أرى لحمًا

قلب الأسد : لأننا موجودون، الآن، فيما وراء الحياة الدنيا .

روح !

والروح لا تُرى بالعين المجردة .

ولحمي روح . روح اللحم .  
وكان من الصعب رؤيته، أيضاً، على الأرض .

ساسليك ! ساسليك !

أبو شارب : لماذا أحرقتك معنا؟

شارب الدم : أخ ..

قلب الأسد : كلّه على العرب قُطِين .

أنتم سُمر وأنا أسمر .

أنتم للحرقت وأنا أحرقت .

ساسليك ! ساسليك !

أبو شاربين : نحن عائدون ..

شارب الدم : عائد؟! أخ ..

قلب الأسد : وأنا عائد ..

ساسليك ! ساسليك !

أبو شارب : لماذا لم تبقَ في مسقط رأسك؟

شارب الدم : يبقى؟! أخ ..

قلب الأسد : طردني العرب ..

أبو شاربين : ونحن طردنا العرب ..

قلب الأسد : ساسليك . ساسليك .

شارب الدم : طردوكم؟! أخ ..

أبو شارب : أهلك قتلونا ..

قلب الأسد : وأنا أيضاً ..

ساسليك . ساسليك .

شارب الدم : أخ ..

أبو شاربين : أهلنا لا يقتلون سوانا .

قلب الأسد : وأنا أيضاً ..

ساسليك . ساسليك .

شارب الدم : لا يقتلون سواكم؟! أخ ..

أبو شاربين : ما اسمك؟

قلب الأسد : سعادية .

أبو شارب : وأنا سعدي .

أبو شاربين : وأنا سعيد .

شارب الدم : أخ ..!

قلب الأسد : تشرّفنا يا أخ .

ساسليك؟

شارب الدم : أخ؟

أخ!

أبو شاربين : كفى أخاخة يا سعادة .

شارب الدم : أقتله ويسمّيني أخ؟!

وقاحة! إهانة . قال : أخ!

أخ ..!

فتعرو الدهشة سحابة وجه سعادية قلب الأسد .

أبو شارب : أنت قتلته، يا سعادة؟

يا قتيل ابن القتيل؟

حتى في الدار الآخرة تزيد علينا؟

طيب! إذن أنا قتلته!

أبو شاربين : عيني يا عيني! وأنا؟

إذا كنت أنت قتلته مرة فأننا قتلته مرتين!

شارب الدم : ثلاثاً! قتلته ثلاثاً!

بالطلاق بالثلاث!

وإذا بغمامة الدهشة تعبر عن وجه سعادية، عبور غمامة صيف . ويصحو وجهه على أمارات الحكمة فيضع سبّابته على صدّغه في حركة أرخميديسية أصيلة، نحاول، نحن الجالسين تحت – أي في القاعة – أن نُحاكيه فيها، فلا تزيد غباءنا إلا غباوة . فنتكتّف صابرين فيما يكون اقتتال الأخوة مستعر الأوار .

وإذا بسعادية يصرخ :

« القتلة! القتلة!

أغيثوني يا أهل الموقف!

قتلتني القتلة! » .

فُتقبل جارية من خدم الجنان تهروول منزعجة وفي يدها مكنسة  
منفضة تلوّح بها.

الجمارية : أسمع عياطًا وأرى مياطًا .

ألا تعلمون أن اليوم عطلة؟!

الجميع : عطلة؟!

الجمارية : عيد ميلاد سيدنا إبراهيم عليه السلام .

قلب الأسد : جدّي إبراهيم!

شارب الدم وأبو شارب : بل جدنا إبراهيم!

أبو شاربين : أخ ..!

قلب الأسد : جدّي ..

أبو شارب : جدّ جدّي ..

شارب الدم : جدّ جدّ جدّي ..

أبو شاربين : أخ ..!

الجمارية : هوب .. كفى!

وأنت! ماذا يؤخّخك؟

أبو شاربين : بلغم . بلغم . برم . برم . بق . بق . بضم . بغم .

غم . غم . غو . غو .

الجمارية : الله يبعث .. إرجع غداً .

غداً . يا الله ..

قلب الأسد : البركة فيك ، يا ست الحسن .

فاقضي بيننا يا حلو ..

فتضحك الجمارية وتختال دلالاً .

الجمارية : يا حلو ..

أبو شارب : أنا أحلى ..

أبو شاربين : يمينا !

شارب الدم : قومية المعركة !

ويتكشّف سعادة وهو مشمئز .

الجمارية : معارك؟ في الدار الآخرة؟

وحوش !

قلب الأسد : أقضي بيننا ، يا حلو !

الجمارية : سلّموا سلاحكم الأبيض ، أولاً .

ثم أقضي بينكم .

إخلع ! إخلع ! إخلع !

أبو شارب : نخلع؟

الجمارية : سراويلكم!

إِخْلَع! إِخْلَع!

فيخلع سعدي أبو شارب سرواله . ويلتفت إلى صاحبه ويقول :

أبو شارب : احتطتُ للأمر فأتزرت بسروالين .

الجمارية : وأنت! إِخْلَع! إِخْلَع!

فيخلع سعيد أبو شاربين سرواله ويلتفت إلى صاحبه ويقول :

أبو شاربين : احتطتُ للأمر . فأتزرت بثلاثة سراويل!

الجمارية : وأنت! إِخْلَع!

ولكن سعادة شارب الدم يظلّ متكثفاً ومتعالياً .

الجمارية : إِخْلَع! إِخْلَع!

شارب الدم : لن أخلع!

الجمارية : إِخْلَع أو أخلعه بيدي لا بيدك يا عمرو!

شارب الدم : أي شيء أخلع؟

الجمارية : سروالك يا أخ . .

شارب الدم : السروال المخلوع لا يُخلع .



تحتي عارٍ كما خلقني ربّي .  
لا يوجد تحت هذا اللباس أيّ لباس .  
وسروالي محفوظ في البيت بالنفثالين .

فيغشى على الجارية من شدة الضحك .

الجارية : هل أرى ؟

أتسمح لي أن أتحمّسك ؟

أسبر قعرك ؟

وتهمّ الجارية به وهي تدغدغه . فيفلت منها وهو يهمس :

« بالسرّيّا أورو ..

خفية عن أعين الرقباء ..

بالسرّيّا أم أم ! » .

وتراوده الجارية وهي تصوّب مكنستها نحو مؤخرته . فيفرّ  
من أمامها . فيدوران في دائرة نصف قطرها عصا المكنسة  
وذراع الجارية ، بالحدّ الأدنى . وتلفّ وتدور . وهكذا دواليك  
وإلى آخره حتى يبدو الإعياء على وجه الجارية . فتعود إلى  
سعادة قلب الأسد ويكون يسفد بسفّوده .

الجارية : ما هذا، يا حلو؟

قلب الأسد : سَفُود .

الجارية : سلاح؟

قلب الأسد : ولكنه يختلف عن السراويل بأنه غير عُدوانيّ .

أُدافع به عن نفسي .

الجارية : دفاعيّ، يا حلو؟

قلب الأسد : أشوي به لحمًا وأقتات به .

ولنا فيه، أنت وأنا، مآرب أخرى .

ساسُليك، يا حلو؟

الجارية : هات .

قلب الأسد : هات .

الجارية : هات؟

قلب الأسد : هات وخذ، يا حلو . خُذ وهات .

الجارية : طيّب . هات .

قلب الأسد : هات حكماً، يا حلو .

اقضي بيننا .

الجارية : تكرم عينك .

فتقلب الجارية عصا مكنستها على قفاها . أي على قفا العصا .

وتضمّ ما بين حاجبيها مُلقية الهَيْبة . وتفرج ما بين رجليها

مفحّجة للقضاء بينهم .

الجارية : اسمك ؟

أبو شارب : سعدي أبو شارب .

الجارية : أبو شارب ؟

أبو شارب : الاسم الحركي .

الجارية : ليش ؟

أبو شارب : لم تكن شواربنا قد طرت بعد .

فظنّوا أننا لا نموت إلا بشلل الأطفال .

فأرسلناها كشفاً لهويّة موتنا .

الجارية : فيماذا تموتون ؟

أبو شارب : بالرصاص ..

الجارية : وأنت، ما اسمك ؟

أبو شاربين : سعيد أبو شاربين .

الجارية : أبو شاربين ؟ الاسم الحركي ؟

أبو شاربين : الاسم الطبقي .

الجارية : ليش ؟

أبو شاربين : قرأوا لنا أنه، كي نتحد، علينا أن نبدأ بتحديد

نقاط الاختلاف .

الجارية : بالشوارب ؟

أبو شاربين : لم نجد اختلافات أُخرى .

الجارية : عفارم . فهل اتَّحدتم؟

أبو شاربين : الحقّ عليه .

أبو شارب : بل عليك .

أبو شاربين : عليك !

أبو شارب : عليك !

وينتقلان من الصراخ إلى المرافعة بالأيدي . فَتَحُولُ الجارية  
بينهما وهي تصرخ :

« هوب ! هوب !

مشاغبون ! حتى في الحشر تعكّرون صفو

الموت ! » .

ثم تتحوّل نحو ثالثهم .

الجارية : وحضرة الجناب؟

شارب الدم : سعادة شارب الدم!

الجارية : هو، هو.. الاسم الحركي؟

شارب الدم : لا!

الجارية : الطريقي؟

شارب الدم : لا !

الجارية : إذن ؟

شارب الدم : اسم السترة .. الله يسترک !

فتستغرق الجارية في الضحك . وتهمّ برفع ثوبه عن ساقيه  
بطرف مكنستها . فيشده إلى أسفل وهو يتمتم :  
« يُستر على عرضك » .

الجارية : هل يستر ؟

شارب الدم : يستر .. يستر ..

الجارية : فإذا هتكوا هذا الستر ؟

شارب الدم : لا نعدم أستاراً أخرى !

غِبَّ الطلَب !

سِدَّة مَلَانة !

الجارية : هات يا سبع !

شارب الدم : الجليل قبل الجولان !

قلب الأسد : حصل ..

الجارية : فوق .. فوق !

شارب الدم : الجليل كالخليل !

قلب الأسد : حصل ..

الجارية : دي . دي . دي . دي !

شارب الدم: لا نرضى بأقل من استعادة الأندلس!

الجارية: عليهم..!

شارب الدم: قومية المعركة!

قلب الأسد: يا أمّاه..

فتنتبه إلى سعادة قلب الأسد.

الجارية: وأنت، يا حلو؟

قلب الأسد: وحيد مسكين. حيران..

الجارية: اسمك؟

قلب الأسد: سعادة قلب الأسد.

الجارية: قلب الأسد؟ الاسم الحركي؟

قلب الأسد: لا.

الجارية: الطريقي؟

قلب الأسد: لا.

الجارية: اسم السترة، يا حلو؟

قلب الأسد: لا.

الجارية: إذن؟

قلب الأسد: الاسم القومي..

الجارية: قلب الأسد مرّة واحدة؟

من بطن أمك؟

من المغرب؟

قلب الأسد: لا، والله، يا ست الحسن.

أنا صادق.

اسم عائلتنا الأصلي شلباطو.

ولكننا نختار..

أرض الله واسعة!

أوطان كثير. لغات كثير.

والآخرالوجيا..

الجارية: أخرا؟.. هنا؟

من؟ أنت؟

وفي الدار الآخرة؟

قلب الأسد: آثار.. علم الآثار، يا حلوا

ننبش الأرض فنجد.

انبشوا تجدوا.

الجارية: عمّن تنبشون؟

قلب الأسد: عن جدودنا.

الجارية: هل وجدتم؟

قلب الأسد: عظام كثير. جماجم كثير.

أضرحة. مدنيّة. قديمة. عريقة.

سيف يمانيّ .

أسوار .

زريبة .

جدودنا .

مخازن عدس ! برغل !

الثلاثة : عدس ؟ برغل ؟

إذن جدودنا !

قلب الأسد : الحقيني ، يا ستّ الحسن .

ينبشون القبور .

يلاحقونني على الأجداد ..

العظام ! الجماجم !

المدنيّة !

لا يحترمون الأموات !

وإذ بالسمااء يشقّها بريق يُغشي على الأبصار . فيتحاشاه  
سعادية قلب الأسد والجارية مُدبرين . وأما الثلاثة الآخرون  
فيجهشون بالبكاء إما عن فيض من الأمل وإما عن فيض من  
الألم .

وفيما يكونون على هذه الحال تتردد في أنحاء الموقف  
زغاريد صبايا ونسوة . وتنطلق آهات . ثم تأتينا أصوات



أنثوية ضارعة:

صوت فتاة: برأس أمك، يا خواجه، تتركنا نعود إلى القرية!

صوت فتاة ثانية: أبوس يدك، يا خواجه، خلّني لأطفالي!

صوت فتاة ثالثة: يخلي لك شبابك تخلي لي شبابي ..

ولكن، سرعان ما تستعيد الجارية رباطة جأشها. فتستدير

نحو النور السماوي وتصرخ:

الجارية: هوب! هوب!

نظام!

قلب الأسد: نظام!

الجارية: اليوم عطلة – عيد!

الذي فات مات.

يالله ..

فلا يلبث النور حتى ينسحب إباءً وشمماً واحتجاجاً.

وتعود الجارية إلى سعادة قلب الأسد وهي مرتاحة الضمير.

الجارية: وجدودي، يا حلو، هل وجدت لهم أثراً؟

قلب الأسد: حتى أهرام خوفوا!

الجارية: ولّ! صحيح؟

قلب الأسد: طبعاً!

الأخرالوجيا أثبتت أننا بنيناها بأيدينا ..

الجارية : جدودكم . فأين جدودنا؟

قلب الأسد : بسيطة .. نحمل الأمر على محمل الحاضر .

بما أننا نخدمكم الآن، إذن، فجدودنا خدموا  
جدودكم .

إذا كنّا نحمل الحاضر على محمل الماضي فلماذا  
لا نعكسها؟

كله عظام وجماجم .

ساسليك، يا حلو؟

الجارية : بترول، يا حلو!

قلب الأسد : أيضاً بسيطة .

أرسليني إلى بحر خليجية حتى تختلج الروح في  
صدري .

فأموت فدا عينيك يا حلو ..

ثم تفعل الأخرالوجيا فعلها .

الجارية : تموت ميتة ثانية؟ غير ممكن!

قلب الأسد : ممكن، يا حلو .

فعلتموها ففعلناها .

قتلتنا مدنيتكم .

ونموت في سبيل مدنيتكم .

ليحيَ وطن الآباء والأجداد .

لتحيَ العظام والجماجم والبترول !

الجمارية : وهؤلاء . ماذا فعلوا؟

قلب الأسد : قتلوني يا حلوا!

الجمارية : ولكنهم قتلى هم أنفسهم؟!!

قلب الأسد : هكذا شُبّه لي حتى سمعتهم يقتتلون فيما بينهم

على أنهم قاتلي!

أقتليهم!

الجمارية : أيقُتل القَتيل مرّة ثانية؟

ويصدّق أهل السماء هذه الفرية؟

قلب الأسد : صدّقوها . من زمان صدّقوها .

صدّقوها حتى وهم في الدار الفانية .

سألوهم فأجابوا .

هم فعلوها!

اسألهم!

فتتحوّل الجمارية إليهم فيتدافعون نحوها للوقوف صفّاً واحداً .

وإذا بأصوات أقدام تُهرول في مؤخرة المسرح . ونسمع صوت

المهرج وهو يصيح : « كفى ! كفى ! » فنهبط ، في طرفة عين ،

من السماء إلى الأرض . فتندكر أننا ما زلنا على هذه الأرض .

على هذه الأرض . فيدهمنا قلق الحقيقة .  
وتنجلي الجلبة عن المهرج وهو يدفع بصندوقه ويصيح :

« كفى ! كفى !

القتيل لا يُقتل مرّة ثانية!

القتيل يتكلم صمتاً .

صمتاً لا يمكن إسكاته!

صمتاً لا يسبر غوره سوى القاتل!

دعوا الأم الثكلى تتكلم ! » .

صوت بدور : بدر!

صوت امرأة أخرى : سعاديه!

ويُقبل صبيّة وصبايا يحملون الكانس . ويأخذون

في كنس الخشبة أو أرض المسرح . والمهرج يقول :

عودوا ، يا أولادي ، إلى مقاعدكم .

أنت يا سعدي وسعيد وسعادة .

الثلاثة : يقتلوننا بالتسلل!

المهرج : تشخيص ، يا أولادي ، تشخيص .

عودوا ولا تقتتلوا .

قلب الأسد : وأنا؟

المهرج : مكانك محفوظ ، يا بُنيّ .

فاحفظ لغيرك غيره!

قلب الأسد : يرسلونني إلى الجبهة .

المهرج : تشخيص، يا بُنَيَّ، تشخيص .

عُد ولا تذهب !

الجارية : وأنا؟

المهرج : وأما أنت فلكِ الله وعباده !

ولولا أنه تشخيص في تشخيص لقايضتكِ

بالأرض السماء

مقابل أن تتركي الأرض لأهلها .

ولكن عودي !

تشخيص في تشخيص !

ويعمضون . يتصدّرهم المهرج يتصدّره صندوقه . ونسمعه

يقول :

« موعدنا القريب، أيها الجمع الحبيب، في الجلسة

الثالثة والأخيرة . فلا بد أن يكون لهذا الأمر نهاية

ولو على خشبة المسرح ! » .

ونسمعهم جميعاً يهتفون، وهم يغيبون عن أنظارنا :

« صندوق العجائب . الحاضر يعلم الغائب .

الحاضر يعلم الغائب . »

ونظّل جالسين في مقاعدنا ويمضي الكتّاسون في عملهم حتى  
نراهم يهّمون بأن يكتسونا نحن أيضاً. فنصقّق ونقف  
ونتحرّك. ونرى فريقاً منّا يصفح المشخّصين. فنرغب في  
مجاراتهم إلا أن تواضّعنا، أو نقيضه، يردّنا عن هذا الأمر.  
ولا نعدم مُعلّقين يعلّقون على ما شاهدوه، وشامتين ومستائين  
ويائسين. ولا نكون بينهم لأننا كنا قد عبرنا على ذلك كلّه.

الجلسة الثالثة والأخيرة

## المهرج

« ويُسائلون الليل عنكِ

وهم لعودك

في انتظار... »

( بدر شاكر السياب )





## راح زمان الأنتيكا، ولكن..

« من الضروري أن يكون لهذا الأمر نهاية حتى ولو على خشبة المسرح » ..

حتى على خشبة المسرح سيكون من المثير، يا قشمر بن غمرة، أن نرى إلى نهاية هذا الأمر.

الاستراحة، بين الجلسة والجلسة، حركة وبرّونفاد صبر. حتى جارتني، التي لم تشأ أن تحرك نومة طفلها على يدها، في أثناء الجلسة، أراها تحركه الآن وترسل يديها الحائيتين وتتنهد بملء صدرها. ويكون لغط الصبيان والصبايا تغريد عصافير توقظ فجراً.

هل تعلم، يا قشمر بن غمرة، أن العصافير، في بلاد الجوف النؤوم الضّحي تغرد في جوف الليل؟

يكون الليل يتمطى ويتشاءب. ويكون الليل يغطّ في النوم. وإذا بالعصافير تغرّد. يشرع في الزقزقة عصفور. يغرد تغريد بلابل. هو بلابل أو كما أتخيّل تغريد البلابل. ثم يكفّ منتظراً أن يخجل فجر. فلا يخجل فجر! فيعود إلى تغريده مهيباً بإخوته أن يستيقظوا وأن يعينوه على إيقاظ فجر. فحتّى

طلّاع الطبيعة تدرك أن الوحدة، ولو في قمم النُسور، لا تبدّد  
وحشة ليل.

فيلبّي التغريد مغرّد. فتنتطلق جوقة. وتفتّح أكمّام من  
أغاريد. وتُحيّي الأعشاش على الفلاح الناس. فيخرج الصنّاع  
إلى صناعتهم. والشمس لا تشرق في فصل الشتاء هناك.  
وإذا أشرقت تباطأت ولم تسفر. تحجبها عن العيون غيوم  
ثلجيّة وسماء سخيّة. إلا أن العصفور المغرّد لا تنطلي عليه  
هذه الحيلة. ولا على الصانع ولا على الزارع. فيرون انجلاء  
العتمة فيما وراء الغيمة. فيغرّدون. فيؤذّن بفجر لا محالة.  
فكيف بالفجر في بلادنا، حيث لا يتوانى الفجر الجديد  
عن تلبية نداء التغريد ولا تتحجّب الشمس؟! فيا خالق ويا  
خلق، متى تشرق الشمس في هذا الشرق!؟

وما كان يزقزق عصفور في البلاد البعيدة ويصدح فجر على  
أغصان الغمام حتى أتذكر نومة ضحى ينقرها نور شمس أو  
عصا جدّي - في بلادنا البعيدة - تحت عريشة في حقل من  
البطيخ والشمّام. أو في كروم الدوالي. أو فوق مراتب التّين.  
وكنا نصدح، نحن أيضاً، ونقرقر. وكنا ننتظر نهاية لهذا الأمر  
سنة دراسية أخرى.

بلادي، يا بلادي!

كم زقزقنا لاستدرار فجر. وكم توقّعنا طلوع فجر.

وما زالت والدة أولادي، جدّة أحفادي، تعيرني أنني لم  
أمهرها سوى مهرٍ مؤجّل خمس سنين: وعد، من قبل خمسة  
وثلاثين عاماً، بأن انجلاء هذا الليل لن يتأخر. وما هي إلا رمية  
سنوات خمس حتى يطلع فجرنا فأراودها عن فترة التأجيل.  
وأدّعي أنها عشر سنين لا خمس. فتعاندي وأعاندها حتى  
تنقضي ليلة أخرى على صداق لم يصدق منذ ثلاثين عاماً.  
بلادي، يا بلادي!

متى ينقضي هذا الأمر ويزول عنا هذا القهر؟!  
لقد شمّست، في هذه الأثناء، مهور كثيرة في مشارق  
الأرض ومغاربها. وأخذنا أعراسهم عرساً. ولكن، أيّ عريس  
زفوه إلى الثرى لم نزف مثله؟ وأيّة ثريا بكت عليهم، نجومًا  
وكواكب، لم تبك علينا؟ فلماذا تشاقل ليلنا وأدار الفجر لنا  
ظهره؟

بلادي، يا بلادي!

لا تلوموا الضحيّة!

كيف نلوم الضحيّة؟ نحن الضحيّة!

حتى على خشبة المسرح سيكون من المثير، يا قشمر بن  
غمرة، أن نرى إلى نهاية هذا الأمر وإلى طلوع هذا الفجر.  
بلادي، يا بلادي!

وفيما نكون على هذه الحالة من النوسطالجيا، ومن الريب

بقدرة الصندوق على كشف الغيب، متأرجحين بين الصداق  
والصداق والحنين إلى ليالي الصيف الملاح..

.. إذا بالمهرج يُقبل علينا وهو يدفع بصندوقه. وتظهر بدور  
وراءه. ويحتشد وراءهما حشد من الصبية والصبايا تقودهم  
صبيّة تتمنطق بطبلة وتُنطقها، نقرأ، نغماً رتياً.

ويكون الآخرون يصفقون على النغم وينشدون النشيد:  
النشيد: طبّل. طبّل. مزىكا.

راح زمان الأنتيكا.

أصمد. أصمد. ما فيكا.

راح زمان الأنتيكا.

إحمي وطناً يحميك.

راح زمان الأنتيكا.

فتّح. فتّح عينيك.

راح زمان الأنتيكا.

طبّل. طبّل. مزىكا.

راح زمان الأنتيكا.

وتجلس بدور على مقعد الصندوق. وتتكتّف وأمارات نفاذ  
الصبر بادية على محياها. ويقف المهرج وراءها، والصندوق  
بينهما، يهيم بالكلام. إلا أن المنشدين لا يكفون عن إنشادهم.

ونراهم يطوّقون بدورَ والمهرج، وبينهما صندوق العجايب،  
في دائرة من الراقصين والراقصات، المنشدين والمنشدات،  
وعلى رأسهم الصبيّة الطّبالة. وتكون الصبيّة تنقر على  
طبلتها. ويكونون يرقصون ويدورون في الحلقة مردّدين القرار  
بإصرار، فيما يقومون بحركات استهزائية، بأصابعهم على  
أنوفهم أو على آذانهم، يريدون بها الاستخفاف بدور وبالمهرج  
وبجيلهما كلّه.

ويصفق المهرج بصنّجيه. وأما بدور فتظلّ على حالها  
مقيمة.

حتى يضيق المهرج ذرعاً بهم. فيروح ويجيء في وسطهم  
ويقطع الحلقة عليهم، عرضاً وعمقاً. فينتحون، غير متفرّقين،  
مكاناً قصياً. سوى الصبيّة الطّبالة التي نراها، على قصر قامتها  
ولين عودها، تواجه المهرج وتحدّاه. وتنقر على الطبله وتنشد  
في عناد:

«راح زمان الأنتيكا.

راح زمان الأنتيكا».

ثم تجهش في البكاء.

فيتلطف المهرج بها. ويحوطها بذراعه ويكفكف دموعها.  
ويقول، وعمر السامعين يطول:

المهرج: لا بأس. لا بأس يا صبيّة.

راح زمان الأنتيكا.

ولكن، ماذا جاء بعده؟

الجمع: زماننا ..

الطّبالّة: زماننا ..

المهرج: راح زمان الأنتيكا.

يقيناً راح.

ولكن الأنتيكا لم ترح.

راح زمان الأنتيكا

وبقيت الأنتيكا.

الطّبالّة: زماننا آخر.

زماننا جديد.

المهرج: نحن، أيضاً، في صباننا،

في زماننا ..

أنشدنا هذا النشيد.

وكان زماننا جديداً.

ولكن، حين كبرنا،

أكلتنا الأنتيكا.

أكلتنا التراخوما.

بدور: بدر لا يشيخ!

المهرج: ولا شعب بدر، يا بدور.

لا يتركونه يشيخ!

أكلتنا الأنتيكا.

أكلتنا التراخوما.

ويأتينا، من رؤوس جبال بعيدة، قرع طبل أفريقي. فيردّ عليه  
طبل آخر. فيستجيب للنداء ثالث. فطبول. فغابة من طبول.  
وتكفهرّ سماء. ويعمّ ظلام سوى ضوئين ينطلقان من عَيْنِي  
الصندوق. ونسمع جَلْبَة ولا نرى مصدرها. وإذا بالمهْرَج  
يصفق بصَنْجِيْه ثم يقول:

المهرج: قُمْ تفرّج، يا سلام، على عجائب الزمان.

في أعماق أفريقيا الاستوائية،

على شاطئ النهر العظيم،

في شمالي غانا وقولتا العليا

ومالي،

حيث تتراوح نسبة العميان بين عشرة وثلاثين

بالمئة،

تهجع قُرَى

جميع البالغين فيها مُصاب

بالعمى.

أكلتهم التراخوما .  
والوحيدون، الذين تُبصر عيونهم،  
هم الأطفال .  
فإذا شَبَّوا على الطوق وكبروا،  
أكلتهم التراخوما .

ويُضاء المسرح . فإذا بيدور على جلستها، وهي مُكْتَفَةٌ لا تريم .  
ويقف وراءها المهرج وبينهما الصندوق . هذا في زاوية . وأما  
في الزاوية الأخرى فنرى الصَّبِيَّة والصبايا يفترشون الأرض  
في حلقة تتوسطها الصَّبِيَّة الطَبَّالَة . وتكون الصَّبِيَّة تهمس  
في أُذُن هذا الصبي ثم في أُذُن تلك الصَّبِيَّة . فيهللون مرّة  
ويصفقون مرّات . ويضحكون ويزقزقون ويغرّدون . ونسمع  
وشوشتهم كأنها خرير جدول جبليّ، حيناً، وكأنها حفيف  
الأشجار في دغيلة أفريقية مغلولة، أحياناً .

وأما في وسط المسرح فنرى رجالاً ونساءً . لهم عيون شاخصة  
ولكنهم لا يرون بعيونهم . عميان أكلتهم التراخوما . ويكونون  
يحملون، فيما بينهم، حبلاً مرصاً طرفه الأخير في يد شيخ  
منهم يجلس القرفصاء على مرتبة عالية . ويعتمر هذا الشيخ،  
فوق رأسه، طرطوراً . وتكون سقيفة من نخيل تظلّلهما -  
الرأس والطرطور ..



ويتقدّم الرجال والنساء نحو الشيخ المطرطر، صفًا واحدًا.  
الواحد وراء الآخر. والهادي إلى الطريق الحبل المرس. ويبدو  
لنا أنهم تمرّسوا على هذا المسلك.

وفي آخر المطاف، وحين يدرك الواحد منهم طرف الحبل  
واليد التي تمسك به، يقبلون هذه اليد، ثم يفترشون الغبراء  
على جانبي المرتبة وشيخ المرتبة برأسه وبطرطوره وبالسقيفة  
التي تظللها.

فتأخذ يد الشيخ، المطرطر والمسقف، في طيّ الحبل ثم في  
إرساله ثم عدّ عقده ثم في إرساله. حتى نخاله يسبح بسُبْحَة  
أو يلاعب أفعى تنساب بين يديه كما تنساب في نخاله.  
وتصدر عن الشيخ همهمة:

أحدهم: أعد!

فيعود الشيخ ويهمهم.

آخر: طيّب الله الأنفاس!

فيزمجر الشيخ المطرطر.

آخر: بالروح، بالدم..!

- الشيخ: أزعجتنا هذه الصبيّة الطبّالة .
- الجميع: مالها؟
- الشيخ: هذا رأس . مش بطيخة!
- الجميع: تبّاً لها!
- الشيخ: بلغت سنّ الرشد؟
- الجميع: بلغت سنّ الرشد .
- الشيخ: فمتى تثوب إلى العمى؟
- العمى ..!
- أصوات: أنت عيوننا ..
- يا عيوننا ..
- يا عين .. يا عين .
- لا طرطور غير هذا الطرطور .
- طراطينا نواطينا ..
- أحدهم: لِيَحْيِي الطرطور ..
- لِيَحْيِي الطرطور!
- الشيخ: الناطور . قولوا: الناطور .
- إذا أردتم تكريمي فنادوني  
بالناطور .
- نحن عيلة واحدة، يا أولادي .  
وأنا ناطورها .

أما الطرطور فوظيفة .

بحسب الدستور . كله بحسب الدستور .

أحدهم : بالروح ، بالدم .

نفديك يا طرطور!

الشيخ : قُلنا ناطور، يا ولدي .

ناطور . طور .

أحدهم : بالروح . بالطور .

نفديك يا ناطور!

الشيخ : وابنة الزانية ،

كيف فعلتها الزانية

كيف تأخر نموها؟

هذه المعوقة المارقة!

آخر : سمعنا أنها تستعمل مسحوقاً

أحضرته من خارج القرية

لمنع العمى .

فيهمهم الجمع . ونسمع أصواتاً تردد :

أصوات : رجس .

رجس من الشيطان .

جيل وقح .

مُدمن على تعاطي البصر.

الشيخ: أحضرته من خارج القرية!

من خارج العيلة؟

عيب!

أحدهم: قالت إنه مسحوق

البرتقالية.

الشيخ: دكترة البرتقالية؟

أعوذ بالله!

وأنا، وطرطوري؟

وأجدادي.

الشجرة،

حتى جذور الشجرة

والديدان في جذور الشجرة!

نحن فلاحون، يا أولادي.

غيط.

من سبعة آلاف سنة والمرس

في أيدي أجدادنا.

نتوارثه

ونتوارث رقابكم فيه.

مدنية عريقة:

تُقبلون وتقبّلون،

فاتقبّل منكم الجزية

وأنظر عليكم .

عيلة واحدة

فلاّحون

بقر . غجر - دستور .

كلّه بحسب الدستور .

لتسقط دكّة البريطانيا . آخر :

أمرهم شورى بين الطراير! آخر :

حمير، أولاد حمير! آخر :

هل من مُعين، آخر :

هل من مُجير؟

أنا .. الشيخ :

ربّ العائلة .

والمرّس

والعصا لمن عصى

والعمى !

عاش الطرطور الذي أسبغ علينا أحدهم :

نعمة العمى

وراحة البال .

الجميع : عال . العال .

عال . العال .

امرأة : ماذا فعلت الجاهلة؟!

الشيخ : جاهلة؟

بنت العشرين، جاهلة!

خرجت على الإجماع القومي،

عن طاعة الآباء والأجداد .

تستحمّ في النهر دون الاستعانة بالحبل .

وتتميز النهار عن الليل .

تَسْتَرِقُ النظر .

وتحدّث بصراحة الطفل .

أمها : ما زالت طفلاً، يا ولدي .

تغرّب والدها للعمل في مزارع

البيض .

فعاد عظاماً لا تصلح حتى للحساء .

يتيمة وجائعة

وأنا منبوذة أحسو

تراب الأرض .

الشيخ : العمى ..

بلغتِ العشرين

ولم تطلع في عيونها الطواحين؟!  
 زانية بنت زانية .  
 أبعدني ابنتك ومسحوقها المستورد  
 عن أولاد الناس .  
 أو تسحقها وتسحقك الأمة!  
 لا خوف على أولادنا .  
 أولادنا رضعوا التراخوما  
 من أئداء أمهاتهم  
 الحرائر .  
 لا خوف على أولادنا،  
 يا سعادة الطرطور .  
 قلنا ناطور، يا ولدي .  
 ناطور .  
 عيلة واحدة وأنا  
 ناطور .  
 يا صاحب الجلالة الناطور .  
 آخر :  
 الأوحد والوحيد  
 ومدى الحياة!  
 بالديستور يا ولدي . .  
 كله بالديستور .

- الأول : لا خوف على أولادنا بالدستور .  
 آخر : الطرطور فوق الدستور!  
 الطرطور فوق الدستور!  
 الشيخ : لا، يا ولدي . لا لزوم .  
 فالدستور هو الطرطور والطرطور هو الدستور .  
 الأول : لا خوف على أولادنا . هو الطرطور .  
 والطرطور هو الدستور .  
 الجمع : الدستور هو الطرطور .  
 والطرطور هو الدستور .

ويعضون في ترديد هذه اللازمة وهم يتمايلون على وقعها،  
 في دروشة مغرية نضحك لها حتى تُغرينا على تقليدهم،  
 إنشاداً ودروشة .

فنفعل ونحن في غفلة من أمرنا .

وفيما نحن على هذه الحال، تدروشنا الدروشة، إذا بنا ننتبه  
 إلى حلقة الصَّبِيَّةِ والصَّبَايَا، في الزاوية، وقد أخذت تتمايل،  
 هي أيضاً، إلى يمين وإلى يسار . وتهمهم على إيقاع النشيد .  
 ثم إذا بأصواتها تعلقو . وإذا بنا نسمعهم، هم أيضاً، يردّون :

« الدستور هو الطرطور .

والطرطور هو الدستور » .



فتنتفض الصبيّة الطبّالة فإذا هي واقفة في وسطهم وقد أسقط  
في يدها . وترفع يديها إلى السماء في ذهول . فيأخذ الصبيّة  
والصبايا في الوقوف وهم يتمايلون وينشدون .

وإذا بهم يمضون ، وهم على هذه الحالة ، متعثّرين في  
مشيتهم . ويتقدّمون وأيديهم أمامهم تتلمّس الأثر ، عُمياناً ،  
أو متعامين ، حتى يتحسّسوا كبار القوم منهم ، السابقين في  
النعمة . فيفسحون المجال أمام الجيل الجديد . فيقرّص الجيل  
الجديد وراء الجيل القديم ويمضون في التمايل والإنشاد حتى  
تصرخ الطبّالة :

الطبّالة : هل أكلتهم التراخوما؟!

المهرج : الأنتيكا ، يا صبيّة ،

الأنتيكا!

الطبّالة : أين أخطأت؟

فتنبّ عن أحد الشبان العميان ، أو المتعامين ، قهقهة عالية ،  
ثم يقف على قدميه وهو مُمعن في الاهتزاز وفي الدروشة .  
ونسمعه يرد على الصبيّة أن :

« بضاعة مستوردة .

لا تتفق وتقاليدنا .

ستظّلين ، يا طبّالة ،

على هامش الحياة  
ما دمت تعتمدين على المساحيق  
الأجنبية .  
أما نحن ،  
فقد تخلصنا من التحجر  
ومن الأبقار المقدسة  
اندمجنا !  
تعامينا حتى عمينا .  
اندماج كلي .  
وغداً سنرث الطرطور .  
فلا صاحب جلاله ولا من يحزنون .  
بل رفيق ..  
صاحب الجلالة الرفيق الطرطور !  
وفي القرية المجاورة  
نجح الانقلاب .  
الطباله : والتراخوما .  
هل تخلصوا من التراخوما ؟

فلا نسمع جواباً سوى قهقهة ذلك الشاب ، مرة أخرى ، وسوى  
استمرار اللازمة :

«الدستور هو الطرطور  
والطرطور هو الدستور»

ويتسارع الإيقاع فيتسارع الاهتزاز . ويعلو الصوت بالنشيد حتى يشقّ عنان السماء .

وإذ بهم يقفون على أرجلهم، طرطوراً وجماعة - ويرسل الشيخ حبله المرس فيتعلقون به، واحداً وراء الآخر . ويمضون خارجين : الشيخ في الصدر والشاب، المندمج كلياً، في مؤخرة الطرطور . ثم بقية الجماعة . ونرى هذا الشاب يهّم بأن ينتزع الطرطور عن رأس الشيخ فيتردد إمعاناً في الاندماج . ونرى، في مؤخرة الجميع، القادمين الجدد .

وتضرب الصبيّة الطبّالة كعب حذائها بالأرض عنثاً أو إصراراً على التحدّي . ونسمعها تردّد لازمة أخرى :

«راح زمان الأنتيكا .

راح زمان الأنتيكا!» .

ثم تهول خارجة ورأسها في السماء تنقر على طبلتها نشيد الأُميّة .

فيسألها المهرج :

المهرج : إلى أين، يا صبيّة؟

الطباله : أبحث عن جيل جديد .

لن أكفّ ولن أملّ .

فهل من بديل؟

إنّي أحبهم كما أحبّ بؤبؤ العين .

وأحبّ بؤبؤ العين .

فهل من بديل؟

أنا واحدة منهم .

وقد شفيت .

فلماذا لا أشفيهم؟

سوف يشفون .

فهل من بديل؟

ماذا تريدني أن أفعل؟

هل من بديل؟

وتمضي .

ونسلم المهرج يهمس في أذن بدور:

المهرج : يقيناً، ماذا نريدها أن تفعل؟

هل من بديل؟

ويتّجه نحونا ويسألنا:

« أجيبوني -  
هل من بديل؟ ».

فلا نَحِير جواباً .

فيعود:

« هل من بديل؟ » .

فنمعن في الصّمت ..

و«لكن» أُخرى بعد «لكن» التي ورد  
ذكرها آنفاً ..

ويذهب المهرج ويجلس إلى جانب بدور على مقعد  
الصندوق . ويحوطها بذراعه . ونسمع، من بعيد، لحن «أغنية  
حنين الهندي»، لحناً يقطع نياط قلوبنا، فكيف بقلبيهما؟!  
ويشرق حنين في سماء بدور .

ويكون المهرج يهمس في أذنها:

المهرج: أتسمعين، يا بدور؟

بدور: حنين ..

المهرج: أتذكرين، يا بدور!

بدور: تذكرته ..

حنين ..

الشاب الأسمر .

بائع الكتب الجوال .

صاحب اليدين الساحرتين .

يُشعل الفتيل المبتلّ

وخيال العذارى ..

يا لطيفة قلب الأمّهات!  
أتذكر؟

فيضحكان .

صوت امرأة: روعي، يا بنت، نادي على الشاب حنين،  
صاحب اليدين الساحرتين، يعينك على تشميس  
الفراش .

صوت زوجها: إِيَّاكِ ثُمَّ إِيَّاكِ!

لسانه سحر

وعقل البنت طار .

الزوجة: لقد طارت وقُضي الأمر . .

فيضحكان .

المهرج: طارت إلى بعيد . .

بعيد . . بعيد!

تغرّبت .

غرّبوها .

غرّروا بها .

فَعَرَّتْ هُوَّةَ الزَّمَنِ فَمَهَا .  
فَابْتَلَعَتْ الذَّاكِرَةَ .

بدور: كان صانعاً فقالوا لها:

صايغ!

كان مؤمناً بالحياة فقالوا لها:

كافر بالآخرة!

أحبّ الناس أن يتحابّوا

فقالوا لها:

خائن!

آمن بالكلمة فقالوا:

أهبل!

زوّجوني بآخر، يا حنين .

طيّروه ..

فطرنا بعيداً

طرنا وطارت الأيام!

أتذكّرين؟!!

المهرج:

حين ذهب بدر ولم يعد

بدور:

وَخَزَنِي صَدْرِي .

فلما ذهببت بدرية،

ثم ذهب بدران



فبيادر ..  
تحرك في أعماقي  
حنين راقد .  
تأنيب ضمير:  
ماذا فعلنا، يا إلهي،  
وماذا لم نفعل؟  
أيختلف ليلنا عن كل الليالي  
بطوله؟  
صوت أم: آه، يا ولدي البعيد  
عن الديار!  
ويلاه!  
كيف تعود وحدك؟  
لا دليل ولا رفيق؟ (\*)  
صوت ولدها: أمّاه  
ليتك لم تغيبني خلف سور  
من حجار .  
لا باب فيه لكي أدقّ  
ولا نوافذ في الجدار!  
كيف انطلقت بلا وداع  
فالصغار يولولون

يتراكضون على الطريق  
ويفزعون فيرجعون .  
ويسائلون الليل عنك  
وهم لعودك في انتظار(\*) .

المهرج : في انتظار؟

بدور : كفى قشمة، يا حنين!

أنت حنين .

الشاب الأسمر

بائع الكتب الجوال

وصاحب اليدين الساحرتين

لا، وحسرة الزمن الضائع،

يا حنين .

لم أسأل الليل عنك

نسيناك، يا أسمر،

حتى سألنا الليل عنك .

المهرج : بدور!

بدور : إن وسواساً يراودني على حياتي

حتى يدهمني الشعور بالعبث .

يمتلئ صدري بالفزع

من هزلك الجاد، يا أيها المهرج .

المهرج : بدور ..!

بدور : هل تظلّ ذاكرة الشعب

عذراء

من جيل إلى جيل

حتى ولو لم يبقَ مغتصب،

عبر الزمن الغاصب،

إلا واغتصبها وأثخنها بالجراح

وأهدر دمها

وأخذها سبيّة

وباعها في سوق النخّاسين؟

هل حقاً؟!

المهرج : ألوم نفسي ..

بدور : لا تلم الضحية ..

أتذكر؟

المهرج : قد يكون أن أكّلة لحوم البشر،

العصريين،

– بالشوكة وبالسكين –

يلتهمون، معها، الذاكرة.

ربما!

بدور : هل قُيِّض لهذا الشعب المبتلى،

المتحن ..

المطوح، المضرّس، المغدور،

أن يعود على التجربة

من أولها؟

هل ينسى؟!!

لا ينسى وطنه!

المهرج:

حتى الوطن؟!!

بدور:

لا، لا ينسى وطنه .

ولا المغتربون المغرّبون،

الغائبون المغيّبون،

ينسون الوطن .

فالوطن لا يُنسى .

لا يُحمل على الظهر في حقيبة

حتى يُنسى في محطة .

أو يُلقى عن الظهر

تعباً ..

ليس الوطن كالنفس .

إنما الوطن كالتنفس .

وحال الوطن كحال إنسان الوطن :

لا يختار إنسانيته بل يولد

إنساناً .

وإذا خُيِّرنا،

هل نختار أن نولد خنازير؟

أتذكر؟

المهرج: أذكر ولا أنسى ..

بدور: وحين تشاغل الفراق في مشيته

واستولى على عيني الغربية

النعاس

وأخذ الوالدون يتساقطون

تساقط فراش يهوم على

سراج،

سراج يشتعل فتيله وينضب زيته -

سراج العودة -

أشفقنا على معالم الوطن أن تُدفن،

مع الرجال،

في صدور الرجال،

حين راحوا يَمْضون وتمضي معهم،

مكفنة بصدورهم،

حكايات بدور التي أسرها الغول ..

صوت غلام: ستي بدور! ستي بدور!

شوفي القمر كيف يدور!

صوت فتاة: وأينه وأينه

يا ولد؟

فنسمع صوت قهقهة. ثم نسمع صرخة فتاة، تلك التي أسرها الغول.

بدور: فنقلنا إلى الولدان

معالم الوديان،

وتغيّر الزمان،

والصمود في رؤوس الجبال..

صوت رجل: بلّلي شفتي أحمد بقطرة ماء،

يا أم أحمد!

يا أم الشهيد!

بدور: وأسماء الأطلال

والصمود المّحال

والناس والرصاص

وبحّارة يافا وعمّال حيفا

وزنّانة في عكا

وأرجوحة

وظلام السجن

ومناحة

وملوك ومملوك

وملك مملوك ..

حببتي بدور ..

المهرج :

حتى ثورة العشرين وجدنا من يتحدث

بدور :

عنها من فرسانها،

ممن لم يحن هماماتهم

لا الزمن

ولا الحن

لا الغربية

ولا ذوو القري

ولكن ما هزَمنا؟!!

ما شردنا؟!!

ماذا فعلنا ولم نفعل؟!

ما هذه العقارب القارصة

تُحصي الدقائق والساعات والأيام

والسنين

في الزمن القارص،

في هذا الزمن الضائع؟!!

المهرج:

تأبى صدور هؤلاء الرجال

أن تُخلي سبيل السرّ.

الصدمة الكبرى، الصاعقة،

البراكين..

أعشّت أبصار الذاكرة.

وألقت على المجرح غشاوة من الرحمة

الذاتيّة،

رحمة بهم وبما بذلوه

من أبناء

فأعادتها عذراء،

إلا من ذكرى الكروم والبيارات

والبيادر

وأيام كنا..

ربما!

ولكن، يا بدور،

لا تلومي الضحيّة.

أتذكرين!؟

أذكر ولا أنسى.

بدور:

ولكن!

هل من الممكن، في حالة الشعوب –



أيّ شعب، هذا الشعب –  
التضحية بالكبش المضحيّ،  
هو نفسه،

مرة ثانية فثالثة

فعاشرة

هو نفسه!؟

المهرج: هو نفسه . وهو آخر، يا بدور،  
في المكان نفسه .

مثل الشعوب مثل مياه النهر:  
هي نفسها وهي أُخرى  
في النهر نفسه .

وكبش الضحية، ولد الضحية .  
هو نفسه وهو آخر

في المهمة نفسها ..

من عيد إلى عيد .

من عيد إلى عيد .

بدور: خلعنا جلد الضحية .

حملنا البندقية .

ورثناها لأمعة

مسنونة،

محفوظة بالزيت  
في أضرحة الآباء والأجداد .  
أمانة تُردّ إلى الأحفاد .  
لقد حملوها كما لم يحملها شعب  
فيما بين البحرين .  
وقدّموا، من أقصى الجود،  
ثمناً لحرّيتهم  
يفيض عنها  
ويروي موات الأرض لدى ذوي القربى  
ويخفّف العبء عنهم .  
ثم لا يردّون الجميل إلا  
نكراناً!  
لقد أرخصوا نفوسهم حتى أصبحنا نشعر  
بأن استمرار حياتنا  
خيانة ..  
أو لأمر عظيم، يا بدور!  
حكمة سماويّة .  
ومسؤوليّة اجتماعيّة .  
نحن جيل، يا بدور، يعلم أن حياته  
وصيّة ..

المهرج :

بدور: ها أنا، يا حنين،

وصية ..

وصية بدر وكل البدور

أجيال النسور ..

فماذا فعلنا وماذا لم نفعل؟

أية غشاوة ألقيت على الذاكرة

فأعادتها عذراء؟!!

فيقف المهرج على قدميه . ويلتقط صَنْجِيَه ويصفقُ بهما .  
وما إن يقوم بهذا الأمر حتى يأتينا لحن شهرزاد، ألف ليلة  
وليلة، وشوشة آتية من جوف الماضي . فيترجع الضوء مخلفاً  
وراءه حُبَّيبات من النور تحملنا جميعاً، وتحمل معنا المحبِّين  
اللَّذين التقيا في خريف العمر، والصندوق، إلى سالف العصر  
والأوان .

ويأتينا صوت المهرج، في هذه الأثناء، ينشد قائلاً:

المهرج: عن شِكي، عن بكي .

عن جعفر البرمكي .

آن الأوان، يا صبيّة

أن تنطقي!

وإذا بكومة سوداء، لم تكن انتبهنا إلى وجودها في الزاوية  
القصية من المسرح، تنقشر عن فتاة مُفتنة. كأنها زهرة المُرار،  
تسلب الألباب وتجفوها الدواب. وإذا هي شهرزاد الأسطورة،  
بردائها الناعم الفضفاض وبسروالها المهند والمسنَد - شهرزاد  
كما خلقوها لنا حتى نسبح الخالق ونسبح في نعمة خلقه.  
ولله في خلقه شؤون.

وتبتسم شهرزاد ثم تردّ على المهرج قائلة:  
شهرزاد: «ولكن الشوف، يا ناس،  
مش مثل الحكيم!».

فيعود المهرج إلى شكواه وبكاه:

المهرج: عن طير طار

طار ثم طار

ولكن ما نسي الأهل والديار.

عن بير ما له قرار.

وعن وطن حولوه إلى

مقبرة فخّار.

وعن قُمقم بأيديهم حطموه،

فانطلق منه مار د حبيس،

مفتول الساعد،

ذكي وأنيس .  
يشعل في الهشيم النار  
ويبدد ظلام الليل .  
ويطلع علينا وعلى الحاضرين  
أجمل نهار .

شهرزاد : عن شِكي . عن بكي .  
آن الأوان ، يا صبيّة ،  
أن تضحكي ..

المهرج : عن شِكي . عن بكي .  
يا صبيّة تكلمي !  
ما بكِ ؟ !

فتتكلم شهرزاد . تحكي لنا حكاية من حكاياتها :

شهرزاد : بلغني ، يا مهرج الزمان ،  
الطويل اللسان ،

أن السندباد ، في رحلته الأخيرة ،  
وقع على جزيرة باسقة الأشجار ،  
بعيدة الثمار .

وكان أرهقه الجوع والإجهاد  
والسجود لربّ العباد .

ولكن الشوف، يا ناس،  
مش مثل الحكيم ..

وتقوم شهرزاد عن جلستها الشهرزادية، تتلوّى وتتقصّف،  
وتكشف ستارة في زاويتها تتكشف عن شجرة باسقة،  
ثمارها بعيدة المنال تتلألأ في الضوء، أشبه بلألئ البحر منها  
بثمار البرّ، حتى كأنها تنادي المشاهد:

« هل لك، يا أبا الحسن . هل لك ؟ » .

ويكون يقف تحت هذه الشجرة السندياد كما نراه في عيون  
أخيلتنا: شاباً قويّ البنية، فارع الطول، حقيقاً بأن يصل  
وأن يجول . إلا أنه يظهر أمامنا، الآن، في بقية من ثياب ممزّقة،  
مجرّحاً، متخناً بالجراح . ويكون مَحْنِيّ الظهر يعاني من القهر .  
وهو يئنُّ ويتوجّع .

ونرى، تحت قدميه، كومة من هشيم . وهي أغصان وعيدان  
جافة . تنتشر رائحة عفونتها انتشار رائحة العفن الذي يلفظه  
بحر على شاطئه بعد أن ينحسر . وتكون أشبه بقشور الأشجار  
والحطب، مما يتراكم في جوف غابة أوروبيّة تتزاحم رؤوس  
أشجارها على نور الشمس فلا تترك منه، للجوف، سوى  
الأشلاء والفتات وجيف العفونة .

ونرى، في وسط هذا الركام - جزءاً منه - شيخاً هرمًا قميًا، تنتشر صفرة الموت في سحنته الشبيهة بالأرض الموات التي شققها الكسل، قزماً في طول عود من العيدان المقصوفة والجافة حواليه. له يدان ورجلان أشبه ما تكون، في دقتها وفيما تثيره في النفس من اشمئزاز، بأرجل العنكبوت الدَّغفل وأطرافه العنكبوتية. ويكون هذا الدَّغفل يحيط رأسه - صدقتم أو لم تصدقوا - بتاج تتلأأ جواهره حتى نخالها لقيّة في نبش نخالة.

ويكون هذا الدَّغفل يُخرج من فيه أصواتاً حادة أشبه بفحيح الأفاعي أو بما يصدره من صوت مسمار يُسحب على صفحة من حديد.

ونتبيّن فحوى فحيحه :

الدَّغفل : سندباد! سندباد!

السندباد : آه يا ظهري . أنا جائع

والثمر بعيد المنال .

الدَّغفل : سندباد! سندباد!

السندباد : مَنْ المنادي؟

مَنْ المُجِير؟

الدَّغفل : أمامك أنا،

بين رجلك .

أيها الجائع

أنا أُطعمك .

السندباد : إني أرى قزماً

أو بعضاً من قزم .

فكيف تبلع الثمار؟

الدُّغفل : إحنِ ظهرك ..

تحت ..

السندباد : ولكن الثمار فوق ،

فوق .

الدُّغفل : إحنِ ظهرك

فأركبك

بقامتك وبيدي

أبلغ الثمار .

أقطفها بيدي

وأطعمك .

والد برّ بولده .

السندباد : تركبني؟!!

الدُّغفل : حتى نبلغ العُلى

فوق ..

السندباد : هل أفعل؟



أراه يلبس تاجاً .  
لآلئه تُبهر البصر .  
عريق المحتد .  
شيخ بركة .  
الدَّغفل : إحنِ ظهرك يا ولدي!

فيحني ظهره السندباد .

الدَّغفل : تحت ، تحت ، يا ولدي!  
السندباد : البركة فيك ، يا شيخنا .  
الدَّغفل : أوطأ . أوطأ . يا ولدي!  
مالك غيري ، يا حنون .

وإذا بأمرين يقعان في آن واحد . الدَّغفل يقفز فإذا هو فوق  
كتفي السندباد راكباً وهو يضحك في هسهسة كريمة .  
والمهرج يصرخ فيأتينا صراخه غمغمة وجلجلة .  
المهرج : حَذُّ . حَذُّ .

حذار يا سندباد!

الدَّغفل : قُضي الأمر .  
نفذ السهم .

ولم تعد تُجدي الحذوة!

السندباد: أقطف لي ثمرة، يا شيخني،  
فإني جائع.

الدَّغفل: الثمر بعيد المنال.

وأنت محني الظهر.

جاهل.

أقم ظهرك حتى أبلغ الثمر.

السندباد: كيف أقيم ظهري وأنت تركبني  
يا شيخ؟

الدَّغفل: شدّ حيلك!

السندباد: خفف ضغط ساقيك

على عنقي!

الدَّغفل: فترميني عن ظهرك،

أيها الخبيث؟

سأشدُّ على عنقك حتى أكرهك

على الانتصاب.

فسمع حشرة السندباد وهو يتحامل على نفسه ويعالج قامته  
ليرفعها.

الدُّغفل : إجهد جاهدا!

شدا

ها هو تاجي يلتصق بالثمار!

إنها جواهر!

السندباد : جواهر؟

أين الثمار؟

إنني جائع..

الدُّغفل : جواهر مجد

علا!

أمجاد. جواهر..

ويملاً تاجه وجيوبه بالجواهر.

السندباد : الخبز..

الدُّغفل : مادّي..

كافر بالشرق الروحانيّ.

أمجاد. جواهر!

السندباد : أنا جائع!

كسرة..

الدُّغفل : يكسر رقبتك!

أنا ربكم كسرى .  
ألم يكفك أنني أقمت ظهرك  
وأعدت أمجادك  
وأنشأت لك الجامعة العربية؟  
خيّل!  
ويخيّل عليه .

وإذا بالأرض تزلزل زلزالها ويهبّ الإعصار فتقع الشجرة .  
وتبعثر الجواهر . فيقفز الدّغفل من فوق كتفّي السندباد . فيقع  
على الأرض . فيمضي يحبو على أربع يلتقط ما تناثر عليها  
من جواهره . ويروح ، وهو يحبو ، وراء جواهر بعيدة عن  
أنظارنا .

السندباد : الزلزال ! الزلزال !  
الدّغفل : ليس زلزلاً ، يا جبان ،  
يا خائن ،  
بل زلزال مزعوم .  
السندباد : يقتليني الزلزال !  
الدّغفل : أرض الله واسعة  
من المحيط إلى الخليج .

يا هلا! يا هلا!  
ولعلكم تكرهون شيئاً وهو خير لنا..

وفيما يختفي الدغفل عن أنظارنا تقوم شهرزاد متثاقلة، كما  
على شهرزاد أن تقوم متثاقلة، ونسمعها تقول في غُنج:  
شهرزاد: الآن جاء دوري..

خلا الميدان  
وآن أواني كي أركبه.

ويهمّ السندباد بأن يقيم ظهره. ويحرك أطرافه وقد تخلّص  
من العبء. فيبدو الألم على وجهه من جرّاء هذا الجهد والجوع  
القديم. ونسمعه يتأوّه ويقول:

السندباد: العنكبوت! الدغفل!  
ركبني فخانني.

امتطاني فطوح بي.

لن أنسى!

لن أغفر!

المهرج: إن من ركبك خانك

يا سندباد

أقمّ ظهرك!

شهرزاد: العنكبوت . الدَّغفل .

شيخ متخلف .

ولّى زمان المطايا!

كفى ما ارتكبوا من خطايا!

أبشِرْ، أبشِرْ، يا سندباد!

جاء الخلاص .

أنا الخلاص .

القائد!

لن أمكّنه من ظهرك

مرّة أخرى .

السندباد: من؟ شهرزاد!

هل أنت الأمل الذي كان يراودني؟

من قديم الزمان؟

شهرزاد: أبشِرْ، يا سندباد!

أنا الخلاص، يا حبيبي .

لن يركبك الدَّغفل

بعد الآن!

السندباد: كيف يتحقّق هذا الأمل

يا حبيبتي؟

من يحمي ظهري؟

شهرزاد: أنا، يا حبيبي!

السندباد: كيف يا حبيبتني؟

شهرزاد: أمتطيك أنا!

السندباد: تمتطينني؟ يعني،

تركبينني؟

شهرزاد: أبداً.

الامتطاء غير الركوب.

الامتطاء عود إلى الزمان الأوّل.

فروسية!

السندباد: أنتِ؟!

شهرزاد: خفيفة الوزن أنا،

والظلّ والدم.

صغيرة. كُلي نشاط.

عمري أمامي.

أمتطيك وأطير بك.

جناحاك أنا، يا حبيبي.

نخّ!

نخّ!

بدور: ولكنه مرّ على هذه التجربة.

هل نسي؟

هل عادت ذاكرته عذراء؟!

شهرزاد: أنا جديدة، يا روح أمّها.

تجربة جديدة.

كلّي ناراً!

جرّبوني أسركم.

جرّبوني يا عيوني!

المهرج: سوّية، يا شهرزاد!

بلا راكب ومركوب.

شهرزاد: إخرس أنت، يا روح أمّك!

قال: بلا راكب ولا مركوب!

فلماذا خلق الله الأكتاف

إذن؟

كافراً!

المهرج: الناس سواسية..

شهرزاد: سوّس الله عظامك!

أنت من؟

من أبوك؟

أصلك . فصك . علمك . دينك؟

نخاً!

نخاً!



المهرج : سندباد . يا سندباد!

لا تنخّ!

هناك ظهور منتصبه

أكتاف حرّة!

إنك إنسان!

السندباد : أنا جائع . مُتعب . متفرّق .

جائع إلى الخلاص .

إذا لم يركبني

من يركبني؟

أتركبني؟

المهرج : موقعي ليس فوق ظهرك،

يا سندباد!

بل معك!

إلى جانبك .

نتكاتف :

كتفًا إلى كتف .

وإذا شئت،

نتقدّم الصفوف!

بدور : إركبه، يا حنين ..

لماذا لم تركبه؟

كيف ضيّعت فرصة العمر  
وأنت مشغول بهذه السفسطة؟!!

المهرج: سفسطة؟!!

سفسطة، يا بدور!

أغييب السرّ عنك

مرّة ثانية؟!!

هذا هو السرّ الذي غاب عنك

حين زلزل البركان .

شهرزاد: تعال، يا نُصّ لسان .

راحت عليك .

أسبقك فأمتطي .

وأسكتك بأن أترك لك مكاناً

في القفا .

المهرج: والتراخوما . .

وهذا الإنسان؟

شهرزاد: حبة، حبة، أكل العنب .

نقيم جبهة، يا روح أمك .

نِخْ! نِخْ!

المهرج: سندباد! سندباد!

شهرزاد: صوتي أعلى .

صوت المجد التليد أعلى

نِخْ! نِخْ!

نِخْ، فتبدأ المسيرة

ونشرع في الإنشاد.

نِخْ!

فَيَبْرُكُ السندباد . فتركبه . فلما تعلو ظهره تُخَيَّل عليه وهي  
تُنشد نشيداً حفظناه في المدرسة الابتدائية عن ظهر قلب ،  
ولذلك لا يصحّ، في هذا المجال، القيل والقال :

شهرزاد: بلاد العرب أوطاني

من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن

إلى مصر فتطوان

فلا حدّ يباعدنا ولا دين يفرّقنا

لسان الضاد يجمعنا

بغسان وعدنان .

لنا مدنية سلفت

سنحيتها وإن دثرت .

( تصفيق! )

ولو في وجهنا وقفت  
دهاة الإنس والحجان

(عاصفة من التصفيق)

فهَبُوا، يا بني قومي،  
إلى العلياء بالعلم  
وغنّوا، يا بني أُمِّي،  
بلاد العرب أوطاني.

وفي لحظة من اللحظات، حين يكون صوت النشيد يعلو أعلى من صوت شهرزاد ننتبهُ إلى أن السندباد، أيضاً، مشترك في الإنشاد. بل نسمع صوته يعلو على صوت شهرزاد. وتأخذه النشوة. ويستبدّ به الطرب. فيفرح ويمرح. فيما تكون شهرزاد على مثل حاله سوى أنها الراكبة وهو المركوب.

وفي لحظة تالية نلاحظ - بلا دهشة - أن بدور، نفسها، قد استبدّ بها الحماس. فأخذت تصاحبهما في الإنشاد وتمرح وراءهما وهي مأخوذة.

وحين ننتبهُ إلى أنفسنا فإذا بنا، نحن أيضاً، نُشارك في الإنشاد، نُدرك أنها غير مؤاخذة.

ويكون المهْرَج يتمم بكلام غير مفهوم . ثم يضع كَفِيه على  
عينيه، إما عن شعور بالإحباط وإما عن رغبة في أن لا يرى  
ما نرى من أمجاد .

ويغيب الفارس والفرس وبدور عن أنظارنا . فنصمت ذلك  
الصَّمْت الذي يسبق العاصفة . أو صمت الولد السارق قد  
مُسِكَ والتفاحة الحرام في يده .  
ولا يبقى في القاعة سوانا، نحن والمهْرَج، وجهاً لوجه !

( \* ) الأبيات للشاعر العراقي بدر شاعر السياب .

## الوجه المُشرق

لا يبقى في القاعة سوانا، نحن والمهرج، وجهًا لوجه . كلانا يفضّ الطرف عن الآخر خجلاً من نفسه أو حرصاً على دخيلة نفسه .

وإذا بالمهرج يتقدّم نحونا وأمارات التصميم بادية على وجهه . فيخيفنا منظره، بالعينين الواسعتين، الشاخصتين . فينفجر طفل بالبكاء . فتهزّنا المفاجأة . فَنُهمهم مدّعين أننا نضحك .

المهرج: حتى أنت، يا بروثس!؟

لا، والله!

أنتم!؟

وربّ الكعبة لأحملنكم على الطريق!

إلا أنتم!

أنتم الذين، حين جاءكم الإعصار وفرّ الدّغفل،

تخلّى عنكم كل الراكبين، بالضّاد، على

ظهوركم .

قالوا: ليركبكم الشيطان، إذا شئتم.  
أنتم؟

أنتم، في عيونهم، أموات  
كما أنّ وطنكم، في عيونهم، قد مات.  
مُتُّمٌ في عيون أعجازهم.

أعجازهم المفتحة بلا عيون.  
ما داموا لا يستطيعون أن يركبوكم  
ليركبكم الشيطان!  
سيّان!

الشيطان أخو الشيطان  
خونة!

لماذا بقيتم في وطنكم؟  
حتى يركبكم العدو؟!!

ويتكئ على صندوقه. ويتنهّد. ثم يقول:

المهرج: أولاد الناس. يا أولاد الناس!

أنتم أبناء البلد وبناته.

أنتم أبناء الوطن وبناته.

إنّ من ألقى على كتفَيْهِ هذا الفيل

لن ينخنخه لا الزعيق ولا العويل.

إِطْمَئِنُّوا، يَا أَبْنَاءَ الْبَلَدِ وَبُنَاتِهِ،  
بِدُورِ عَادَتِ إِلَيْنَا  
عُودِي بِدُورِ!  
أُمُّ بَدْرَا!

وإذا بصوت بدور يشقّ عَنانَ السماءِ . نَسْمَعُهَا تَنَادِي . ثم  
نراها ماثلةً أماننا، بثيابها، ومضرجةً بالدماءِ .

بدور: حنين ..!

يا حنين الصَّبَا!  
أوطاني ضاقت بنا!  
حين رفَعنا هاماتنا  
لنظِّلَ على الوطنِ،  
تفرَّقوا من حولنا .  
أيدي سبأ ..  
أيدي أَرانب ..  
أصبحنا عالة . عبئاً على المجتمعِ،  
يا حنين .  
مجتمع حمالي الأسيّا!  
لا مكان إلا للحمّالين .



وأما منتصبو القامة

فتعجّ بهم السجون

وبطون الأرض .

وهناك ..

لا مكان لنا!

لأن ضريح بدر

هنا!

وحرام علينا أن نزوره، يا حنين!

حرام علينا أن نُدفن معه!

حرام علينا أن نُدفن معه؟!!

لُكّع يحكم، يا حنين!

وهنا، يا بدور!

المهرج:

فمتى تقوم الساعة؟

بدور:

أترى ضوءاً في السرداب؟

عمّا يكشف صندوقك،

من مستقبل، يا حنين؟

لا أنا بصّارة ولا أنا برّاجة

المهرج:

يا بدور .

لست قارئ كفّ ولا منجم أبراج .

بل أستعيد الماضي .

لا لكي أفتح جراحات  
بل كي لا تذهب التجربة هباء  
ولا تعود الذاكرة عذراء،  
أشبه بذاكرة طفل.  
إذا لم نَرَ الحاضر  
لا نستطيع أن نرى المستقبل.  
إن أمراً واحداً يُقلقني في هذا الأمر،  
يا بدور،  
وهو أن نقعد ننتظر الانفجار  
قيام الساعة  
أن ننتظر ساعة لا يعود فيها  
الحال محتملاً.  
هذه الساعة لا تحين،  
يا بدور!  
فالذي يحتمل منتظراً ساعة الانفجار  
يصبح الماضي البشع، في عينيه،  
أمراً جميلاً.  
فيحتمل الأسوأ منه.  
حتى إذا مضى  
يصبح، هو أيضاً،

أمراً جميلاً،  
إتني أفكر بإخوة سعدي  
وبإخوة سعادية .  
لا يمكن أن يجتمعا على التفاف  
إلا فيما وراء هذه الحياة .  
قرأت الخطاب الذي لم يُلقَ  
فانتابتنني الهواجس .  
ها نحن نقرب من منتصف العقد الثاني  
للاحتلال .  
فلا عجب إن اضطرب صاحب الخطاب  
أمام تعاضم المقاومة في وجه  
القمع المتعاضم .  
يبدي خوفه من أن يستيقظ  
في صباح أحد الأيام،  
فيهُوله ما يرى في المرأة .  
يقول: « نستيقظ في صباح أحد الأيام  
وننظر في المرأة  
فلا نعود قادرين على تحمّل  
الوجه القذر  
والمثير للاشمئزاز

الذي يبخلق فينا»(\*) .

بدور، يا بدور!

لقد حملت صندوقي

وأنا تستبدّ بي الهواجس

إذا لم يأتِ هذا اليوم،

كل يوم!

وفي كل الأيام الماضية،

إذا لم يأتِ حتى الآن،

فإن بشاعة الانتظار

تجعل القرد في عَيْنِي أمه غزلاً .

الوجه الذي يبخلق في صاحبه!

أمن الصعب أن يتخيّله صاحبه

وهو يبخلق فينا؟!

أما نحن، يا بدور،

فوجهنا مُشرق .

بدور: وجه بدر!

المهرج: ووجه قاسم . ووجه خديجة .

ووجه ياسين .

ووجه بدر .

ووجهك، يا بدور .

- بدور: ووجهك، يا حنين..
- المهرج: فلماذا نخفيه عن أعينهم؟
- إني أرى بصيص نور.
- بدور: شقائق نعمان تُزهر فوق ضريح
- بدر.
- المهرج: وأشقاء لنا..
- شقوا على النفاق عصا الطاعة.
- يحرصون على ضريح سعدي
- كما يحرصون على ضريح سعادية.
- بدور: حرصاً على الأحياء!
- المهرج: حرصاً على الأحياء!
- بدور: يطغى ظلام!
- المهرج: وينتشر نور
- في أماكن أخرى.
- قامت ساعتهم
- ولم تبق إلا ساعتنا.
- بدور: لُكع بن لُكع يلي أمور الناس.
- المهرج: لا تقوم الساعة حتى يلي أمور
- الناس لُكع بن لُكع!
- بدور: نخلعه ونعود؟

المهرج : نخلعه ونعود .  
 نعود ونخلعه .  
 مسيرة واحدة .  
 بدور : تقوم الساعة؟  
 المهرج : تقوم الساعة .  
 بدور : متى يا حنين؟  
 المهرج : غداً! يا بدور!  
 بدور : غداً؟  
 المهرج : غداً .

وإذا بربيع وبسعدي وإذا بسعيد وسعادة وإذا بسعادة يُقبلون  
 في لباس أبيض، بدون أجنحة، يحملون طاقات من الزهور  
 يقدمونها إلى بدور .

وإذا بجمع من الصبّية والصبايا، أولئك الذين رقصوا رقصة  
 الموت، يُقبلون متهلّلين ومستبشرين وفي أيديهم الزهور  
 ينشرونها على بدور .

ويغمر نور ساطع زاوية من زوايا المسرح . فيظهر وسط  
 الضوء، وكأنه خارج من الضوء قبساً من نور، شاباً فارح  
 الطول . ويكون واقفاً على منصّة يحمل في يده ورقة من  
 الصبّار، التين الشوكي، فلا تُدمى يده .

فتصرخ بدور..

بدور: قام بدر! ابني بدر!

طلع بدر!

أورق بدر!

اكتمل بدر!

ابتسم بدر!

المهرج: بدور..

غداً، يا بدور!

بدور: قام بدر!

أطلع بدرأ.

أنطق صخرأ.

حرّك ضميرأ.

المهرج: غداً.

غداً، يا بدور!

الجميع: غداً

في الغد. غداً!

ويعضون. وهم ينثرون الزهور، الآن، على الحضور. ويكون  
المهرج في مقدّماتهم، يدفع بصندوقه. وإلى جانبه بدور

وحولهما ووراءهما بقيّة الجمع .  
ونسَمعهم ، وهم يغيّبون عن أنظارنا ، يُنشِدون بصوت  
واحد :

« الموعِد في الغد .  
غداً . غداً .  
الحاضر يُعلم الغائب .  
غداً . غداً .  
صندوق العجايب .  
غداً . غداً .  
صندوق العجايب .  
غداً . غداً . »

وفيما نحن نوَدّعهم بالتصفيق وبالتهتاف والوقوف على  
الأقدام ، إذا ببذور تعود وهي تحمل باقة من الورود الحمراء  
تلقِيها تحت قَدَمَي بدر وتولّي باكية .  
فנסرع إلى بيوتنا ، وإلى أمّهاتنا وإلى زوجاتنا وإلى أطفالنا ،  
ونحن بين مُصدّق ومُكذّب .



أما أنا، وقد يكون هناك غيري، فلا أنام فيما بقي من جوف  
هذه الليلة..

(\*) الإشارة إلى مقال النائب «المعراخي» يوسي سريد ( «هآرتس»  
١٩٩٧/١٠/٣٠).



## المحتوى

### الجلسة الأولى : مجنونة بدر

- (١) صندوق العجب . الفُرجة برغيف فوق طبق طرعاني . ١١
- (٢) لا بدر ولا بدران، ولا بدرية ولا بيدرا! ..... ١٨
- (٣) أحد عشر حجابًا أسود وطفلتان وحجاب أحمر واحد ٢٩
- (٤) لُكع بن لُكع ..... ٤٨

### الجلسة الثانية : بدر..

- (١) فلافل! .. فلافل! ..... ٦١
- (٢) تموت الحمير وتحيا الزريبة ..... ٧٢
- (٣) جريدة من الوطاويط تصيت : وط . وط . يوط . يوط! ٨٧
- (٤) ستة عشر لويسًا ولويس عوض ..... ٩٥
- (٥) بدر! .. كلهم ولدي بدر! ..... ١٠٦
- (٦) مادبة سُواء ..... ١٢٠

### الجلسة الثالثة والأخيرة : المهرج

- (١) راح زمان الأنتيكا، ولكن ..... ١٤٥
- (٢) و«لكن» أخرى بعد «لكن» التي ورد ذكرها آنفًا ..... ١٦٦
- (٣) الوجه المُشرق ..... ١٩٨

# إميل حبيبي

جدل الخصوصية والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقية الزمنية بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنية الرواية ذاتها، شكلياً وروحياً. وذلك فضلاً عن كونه يمثل تياراً أساسياً في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسناده تطعيم الشكل الروائي الحديث بعناصر سردية وغير سردية مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسية الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خرافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناؤه الروائي على مواد متنوعة متغايرة وأن يؤلف نصه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلّ عن أسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقاً جديدة الجدة كلها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النقاد والدارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عاماً (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديباً ومسرحياً وكاتب مقالة وقائداً سياسياً وابتناً باراً لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا - مسقط رأسه. إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عموماً وفي الدّاخل خصوصاً، حافلة ضمن أشياء أخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدلاته في منعطفات المصير الإنساني . ومن الطبيعي أن تكون متصلة اتصالاً وثيقاً بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبدية داعياً، في وصيته الغنية بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعل أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضواً في الكنيسة (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣ - ١٩٧٢، وتولى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤ - ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يومية. وقبل وفاته أسس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

أهم كتبه الأدبية المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطية» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أم الروبايكييا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصية المنشور بعد وفاته.

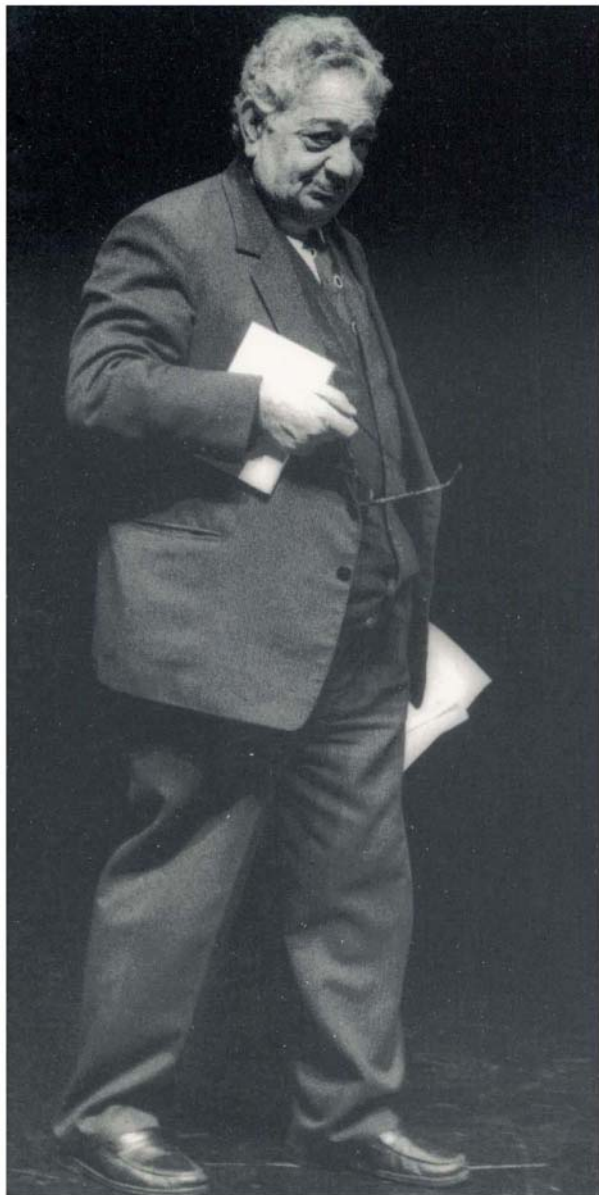
ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبية، ما زالت هذه التجربة تستقطب القراء والنقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصياتها وشخصيات روائية أخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كله بما أحدثته من أثر متميز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والامتع الذي بناه إميل حبيبي وظل يشكّل منارة تنير الدرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النَّاشِر)





ISBN 965-7388-02-3



9 789657 388020